كوليت الخوري

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مدونة ابو عبدو

ليلة واحدة

ABU ABDO ALBAGL

ليلة واحدة

جميـــع الحقـــوق محفوظـــة للمؤلفـــة

ليلة واحدة

رواية

الغـــلاف

للفنان الكبير

الصديق

عصمت رضا

وقد تركه عندي هدية

سنة ١٩٦٢

فله أطيب المودّة

كوليت الخوري

Khoury, Colette

ليلة واحدة

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. 01 40 33 26 01 - Fax 01 47 97 16 34

رواية

قصاع ــ غساني

٦٦ شارع سليم قنواتي

هاتف: ٤٤٤٦٥٣٧

فاكس: ٢٢٤٧٠٣٩

ص.ب: ٩٩٩

دمشق

الطبعة الرابعة

٢٠٠٢

الإهداء

سنة ١٩٩١

ثلاثون سنة مرت على الطبعة الأولى لهذا الكتاب .
ثلاثون سنة مليئة بالأحداث ، بالزلازل وبالحكايات ...
وتغير العالم خلال هذه السنوات الثلاثين .
تغيرت الدنيا ... تغيرت بلادنا ... وتغيرت أنا !
لكن هذه الرواية بقيت كما هي لا تقبل التغيير ...
فهي قصة المرأة الذكية المرهفة الطموح التي يرغمونها على الزواج ... فيكتب عليها أن تقضي بقية عمرها في الحرمان ...
بل هي قصة الحرمان في العديد من مجالاته .. الحرمان من الطموح ... الحرمان من العاطفة ... الحرمان من الأمومة ... وما ينتج عن هذا الشعور من تصرفات وأفعال ...
بعد هذه السنوات الثلاثين .
هذه السنوات الطويلة الطويلة الطويلة التي مرت ... كالبرق !
أجدني أمسك بالقلم لأهدي الطبعة الثالثة من هذا الكتاب إلى بنات جيلي .
إلى اللواتي منهن من تزوجن على الطريقة التي وصفتها في الرواية ومنهن من رفضن الرضوخ وأبين إلا أن يرسمن حياتهن بنفسهن ...
وإلى صديقاتي في تلك المرحلة ...

بكل حنين ومحبة

كوليت

الإهداء

سنة ١٩٦١

إلى السيدة النبيلة

التي فتحت لي ذراعيها في
ليل غربتي ،
فكانت لضياعي مرفأ ..
ولأحزاني ملجأ ...
ولوحدتي صدراً حنوناً ..

إلى الإنسانة الكبيرة
الكونتيسة فيرجينيا دو زيَّاس
جدة ابنتي

A Madame
Virginia de Zayas

أهدي هذا الكتاب

كوليت

القسم الأول

١

٩ كانون الأول ١٩٥٩ - باريز

« زوجي العزيز ...

لست أدري كيف ابدأ رسالتي هذه والافكار تعصف في رأسي ... والقلم يهتز بين أناملي ...

إن يدي ترتجف قليلاً وتتردد في كتابة هذه الجملة :

« زوجي العزيز ... »

هذه الجملة التي طالما أضاءت حروف رسائلي ... هذه الجملة التي كان يكتبها قلمي بصورة آلية وتفهمها يدي ، دون ان يمليها شعوري او يقرؤها عقلي ...

واليوم ...

نعم اليوم أتساءل لأوّل مرة لماذا كنت أكتب اليك : زوجي العزيز؟!

ألانني منذ الصغر فهمت أن الزوج يجب ان يكون عزيزاً؟

ألأنك كنت عزيزاً عليّ فعلاً ؟

أم لأن الكسل واللامبالاة جعلاني أرضى بهذه الجملة المألوفة دون أن أكلّف نفسي عناءَ البحث عن سواها ؟

اليوم لأول مرة تتضخّم حروفُ هاتين الكلمتين وتملأ ضميري ...

اليوم أشعر بأنني نقطة سوداء تأبى أن تتلاشى في حروف هذه الجملة ...

واليوم فقط افهم معنى كلمة « زوج » ويتبين لي أنك شخص عزيز عليّ ...

واليوم ...

ويا للسخرية ،

لأول مرة افهم أنه لا يحق لي أن اقول لك : زوجي العزيز ...

قد تدهشك كلماتي ... وقد تروّعك آرائي ... وقد

تتساءل ما الذي جرى لها كي تتفلسف هكذا ... وهي التي ما تعودت أن تكتب إليّ سوى أمور عادية تماماً ...
نعم ، ماذا جرى لها ؟
ماذا جرى لي ...

يا سليم ...
اريدك قبل كل شيء الا تُفكّر في أنني أكتب اليك كي أبرّر نفسي !
لا والله !
فعفوُك لن يرضيني وإدانتُك لن توْذيني ...!
إن قصتي ليست قصة تافهة تنتهي بمجرد إصدار حكم عاديّ عليها ...
قصتي حياة ...
حياة بأكملها ...
وليس بوسعنا إلا أن نقبلها ... كما هي ...!
أنا أقول : أن نقبلَ قصتي ، وهذا لا يعني إطلاقاً انك قد ترضى عن بطلة القصة ... بل أنا لا أرضى أن ترضى عني .
ولذلك ...
فأنا أكتب إليك هذه الرسالة لتكون آخر واحدة من

سلسلة رسائل الزوجة ... وأول واحدة من رسائل ودّية
قد تمنعني كبريائي من إرسالها إليك ...
نعم ... ماذا جرى ؟
ماذا جرى كي أتخذ هذه الأحكام القاطعة ؟
ماذا جرى ...
والبارحة كنا نتحدث ، بعدُ ، عن آمال مستقبلنا ؟
ماذا جرى ...
ومدة فراقنا ليست سوى ...
ليلة واحدة ...؟

٢

« عقربا الساعة يبدوان عملاقين كبيرين يزحفان نحو الرقم السادس ...

يزحفان !..

يا للسخرية ...

وقد كانا البارحة قزمين يعدوان بشكل جنوني ...

يا إلهي ... كم يطول الوقت في الحالات العصيبة !

وحين نضيع في السعادة ، يستغل الوقت ضياعنا وشرودنا ... فيهرب ... وهو واثق بأننا لن ننتبه له ولن

نحاسبه إلا بعد فوات الأوان ...

نعم ... الساعة السادسة صباحاً ...
ولآليءُ الفجر تختلطُ بدموعي فتهمي على الأوراقِ حروفاً ...!
ليت هذي الحروف تغتسل في نفسك كما يغتسل الفجرُ في عينيّ ...

أنا أبكي مع أنني لا أشعر بحاجة إلى البكاء ...
دموعي تسيلُ من تلقاء نفسها ، وكأن مآقيّ ، بعد أن امتلأت بمعرفة جديدة وبنور حقيقي لم تعد تتسع للدموع ...
فانعقدتِ الدموع سلاسل على الوجنتين المستسلمتين ...

يا سليم ... أكتب إليك الآن من غرفتي في الفندق في باريز ...
أكتب إليك لانني في حاجة إلى التحدث ... إلى الإفضاء بسرّ ثقُلَ به كاهلي ...
أنا في حاجة إلى صديق ... إلى إنسان ... إلى كائن يصغي إليّ ...
فأنا أريد أن تعيش قصتي في نفس أخرى غير نفسي ،

لأنّ قصتي اكبر من نفس واحدة وأخلد منها ...

نعم ... انا في حاجة إلى التحدث ، وأنت أولى الناس بالاستماع ... بل من حقك أن تسمع ... من حقك أن تعرف ...

ومن حقي أنا أن أحاول الشرح !

مرة أخرى أكرر ... أنا لا أريد أن أبرّر نفسي .. أبداً !

ولكنني أودّ وضع قصتي في قالبها الحقيقي ،
كي لا أشوّهَ فيها معنى ،
ولا ألوّث منها فكرة ...
ولا أنسى من حوادثها صورة
ولا أهمل ظرفاً من الظروف التي بعثتها إلى الوجود ...

سأشرح لك يا سليم كل شيء ، وبتعبير أدقّ سأقص عليك كلّ شيء ...

وبرغم الصعوبة التي قد تعترضني في السرد إلا أنني أجد فيه راحة كبيرة ... فقد كنت طيلة حياتي أحبّ الوضوح ... وأما الآن ... وبالرغم عن كل شيء ، فأنا أستمد قوتي ... من الوضوح ...

البارحة يا سليم ...
ولكن ...
هل كان ذلك البارحة ؟
ما أبعد البارحة عن اليوم !
ما أبعد الماضي عن المستقبل حين يكون الحاضر وحده مليئاً !!!

نعم ... البارحة صباحاً كنا نتجول في أسواق مرسيليا ... أتذكر ؟
ثم جلسنا في مقهى على ضفاف البحر وغرقتَ أنت في أوراقك وحساباتك ... فطاب لنظراتي أن تشردَ هنالك عند الأفق حيث اختلطت الزرقتان !
بقينا حوالي نصف ساعة ، ثم تركتني وحيدة وذهبتَ تنهي بعضَ أعمالك التجارية ...
كنتَ تريد أن تخلّص كلّ معاملاتك في مرسيليا كي ترافقني إلى باريز في قطار الساعة الثالثة بعد الظهر ...
وكنت تعلم بأنني لن اوجل سفري ... فموعدي مع الطبيب في عاصمة فرنسا كان لا يقبل تأجيلاً ...
للأسف ،
كانت أعمالك في مرسيليا كثيرة ولا تقبل هي أيضاً

الانتظار. . .

فقررتَ ان تتركني اذهب بمفردي ، وعدتَ اليّ في المقهى لتخبرني ذلك .

لم اكن انتظر عودتك السريعة ، لذلك استقبلتك بعينين مغرورقتين بالدموع .

وحين سألتني . قلتُ لك ان الوهج ... او انعكاس الشمس على المياه قد ادمع عينيّ !

لا ... يا سليم !

لقد كنتُ ابكي !

كنت أبكي بدون سبب ...

كنت أبكي لأن عينيّ كانتا عطشانتين الى الدموع ...

فالحياة التي أعيش لا تستدرّ دموعاً وهذا ما أفاض دموعي !

الحياة التي أعيش !

لست ادري لماذا حدّثني البحر في الامس عن حياتي وعن ماضيّ ...

لست ادري لماذا سمحتُ لعواطفي بان تحاكي الأمواج في هيجانها وصخبها ...

كنتُ أظن ان نفسيتي « الرومانتية » العاطفية قد

ماتت ...

وأن الأيام علمتني ان اعيشَ اللحظة للحظة ، دون ذكريات حنونة ... ودون آمال مغرية ...

ولكنّ البحر حدثني البارحة طويلاً ...

حملتني الأمواج إلى الضفة الثانية من البحر المتوسّط ... إلى البلاد الشرقية ... إلى دمشق ...

تلك البقعة الجميلة التي رعت طفولتي وآنست شبابي ...

فطفح قلبي بالحنين ... حنين إلى تلك السماء الواسعة التي كانت تلفّ لياليّ ... وإلى تلك الشموس المحرقة التي كانت تغزل أيامي ...

وعلى تعزاف الأمواج رقصت لحظات عمري ...

ولم أجد ما يضايق في ماضيّ ...

وهذا ما ضايقني ...

فأنا في أعماق أعماقي لا أُحبُ العيشَ الذي يسير على خطّ مستقيم !

وحياتي ...

حياتي كانت دائماً ... خطاً مستقيماً ...!

هل أحدثك عن حياتي الماضية !

أنت تعرفها جيداً فقد عشتُ معك تقريباً بقدر ما

عشت في بيت أهلي .

نحن متزوجان منذ عشر سنوات وقبلُ ، كنت ما أزال طفلة ... فقد تركتُ أسرتي وأنا في الخامسة عشرة !

طفولتي لا تستحقّ أن أتحدّث عنها ولو أنني كنت فيها سعيدة !

أنتَ تعرف كيف كنتُ أعيشُ هانئة بين أخواتي الثلاث .

كان أبي لطيفاً ، مؤمناً ، يحب بناته ويحاول أن يقدم لهنّ الحياة الراغدة ...

لكننا كنا نخشاه .

كان قاسياً .

تحدّ تفكيره التقاليد ... وتسيطر على تصرفاته التقاليد ... ولا يفهم الدنيا إلاّ من خلال التقاليد ...

التقاليد البالية السخيفة !

أنا لا أنكر فضلَ أبي علينا ...

كان أبي مدرسةً كبيرة تعلمنا فيها أروعَ المبادئ .

تعلمنا فيها التهذيب ... والاحترام ... وعمل الخير ... والتواضع والصراحة ... تعلمنا كيف نحترم المثل العليا

وكيف نغرسُها في الواقع ...

تعلمنا كيف يرفعُ المرء الشريف رأسَه عالياً بين الناس ... وكيف يعتزّ الإنسان بنفسه الغنية ...

نعم ... تعلمنا فيها أُروعَ المبادئِ ولكن هذه المدرسة ، مع كلّ ميّزاتها كان فيها خطآن كبيران ..

كانت تقتل الطموح ... وتدفن الحساسية !

وما قيمة العيش من دون طموح ؟

وما لذة العيش من دون حساسية ؟

كنتُ في صغري طموحة ومرهفةَ الحسّ ... كنت لا أُؤذي أحداً ولكن الجميع كانوا يضايقونني ويجرحونني ... وبدون قصد !

لم يفهموا نفسيّي ... وعدم تفهمهم كان يعذبني ...

كنتُ أطوي جناحيّ على جرحي المخضّل بالعبرات وأغلِ في صمت عميق ...

كنتُ لا أثور أبداً ، فقد كنت أخشى أن تجرح ثورتي أيَّ واحد منهم ... لذلك كنت دائماً أُرضخ للواقع ... وأنا أعلم أن حساسيّي الزائدة ... تحدّ من طموحي بل تخنق طموحي !

كنت لا أود الزواج ... وكان هدفي أن أكملَ دراستي

الثانوية ثم أدخل الجامعة وأدرس الطب ...

كانت هذه المهنة تروقني كثيراً لأنها تلائم نفسيتي الهادئة المتفانية ...

لكن التقاليد كانت تجعل والدي يتمسك ببعض الآراء الخاطئة ويؤمن بها ...

كان لا يفهم أن من الممكن أن يكون للفتاة طموح غير الزواج !!!

فالفتاة ولدت لتتزوج لا لتدرس مهنة اختصّ بها الرجال !!!

وكان قد تقدم لخطبتي كثيرون ، وكنت أرفض دائماً إلى أن سألني أبي مرة بلهجة جدّية قاسية :

ـ هل من الممكن أن تخبريني لماذا ... لا تريدين الزواج ؟

أجبته ببراءة :

ـ لأنني أودّ أن أكمل دراستي !

ـ الدراسة ؟ ما هذا السخف ! الدراسة ليست للفتيات ! على كل حال أرجو الاّ يكون هناك سبب آخر يمنعك من الزواج !

جرحتْني كثيراً كلماتُه

ولم أثر ... فما اعتدت أن أثور ... ولا أن أغضب أهلي ...

ولكن دمعةً لاهبة أحرقت جفنيّ ... دمعة أنبأت بسيل من الحزن غمر قلبي ونفسي !

وفهمت أن هذا الحزن سيغرق آمالي الزاهية وسيطفيء طموحي ...

فهمت أنني سأرضخ لمشيئة والدي !

في المساء ... نادتني والدتي إلى غرفتها وقالت لي بلهجتها الناعمة تلك الكلمات التي طوّحت بآخر ما تبقى من آمالي :

– يا رشا ... أنت جميلة ولطيفة ... والخاطبون يتكاثرون الآن ... ولكنك إذا اتبعت هذه الطريقة فسوف يهرب منك الجميع

حاولت أن أتكلم لكنها تابعت :

– أنا أفهمك تماماً يا بنية ... ولكن ما فائدة دراستك ؟ ستتزوجين إن آجلاً أم عاجلاً ... وثم يا بنية ... الناس لا يقدرون ... المجتمع سيحاربك ... رفضُك المتواصل سيجعل منك لعبة تتقاذفها الأقاويل ... سيلصقون بك التهم ... سيلوثون سمعتك ... وقد يكون ذلك عائقاً

في زواج أخواتك الثلاث ! لا تنسيْ يا رشا أن لك ثلاث أخوات يصغرنك سناً !

يومها فهمت !

فهمت أن الناس لن يفهموا ! وأنني أعيش في بلد تصدر فيه الأحكام على الفتيات من غير منطق !

فهمت أنني مسؤولة عن سمعة أخواتي الثلاث البريئات وعن سعادة أهلي ...

فسعادة أبي تكمن في احترامنا لتقاليد سخيفة اقتنع هو بهـا.

أما سعادة أمي فهي حديث جارتنا أم عـادل من ناحية وإطراء السيدة سعاد من ناحية أخرى !

فهمت أنني نشأت في محيط محدود ...

وفهمت أيضاً أنني بحساسيتي لن أرضى أن أؤذي أهلي ... وأنني سأضحي ... وأنني مضطرة إلى الزواج ...

وقلتُ لوالديّ باستسلام :

ـ اختاروا الشابَ الذي يعجبكم وسأرضى به زوجاً ...

وجئتَ أنت !

كان ذلك في ليلة من ليالي الربيع . وكنتُ أستعدّ لامتحان الكفاءة . فاجأني والدي قائلاً :

– يا رشا لقد تقدّم شابٌ لطلب يدك، واعتقد أننا سنوافق . لا داعي لأن ترهقي نفسك في الدراسة يا حبيبتي . ستتركين المدرسة ! إنه شاب في الثالثة والثلاثين ... من عائلة طيبة ... إنه تاجر ... وماديّاتُه لا بأس بها ... إنه غنيّ يا رشا ولطيف ... سيعجبُك... سندرس طباعه ...والدتُك وأنا ... وسنقرّر ...

في ذلك الأسبوع كنتَ تأتي إلينا ... وتسهر مع أهلي كلّ ليلة ....

وكان الارتياح يبدو على وجه والدي وكانت شقيقاتي يزغردن فرحاً لمجيء العريس .

أما أنا ...

أنا موضوع البحث ... والاهتمام ...

أنا سبب الفرحة التي عمّت في البيت ...

أنا الطائر المكسّر الجناحين الذي غردّت الأسرة بجراحاته !

أنا البضاعة التي كانوا يساومون عليها ...

أنا ... يا أنا ...

بقيت في غرفتي حسب أوامر والدي !

كنتُ أحاول أن أشاهدك من ثقب الباب ...

كنت أراك قطعاً ... قطعاً ...

رأيت يديك في الليلة الأولى ... ثم رأسك ... ثم حذاءك ...

وكنت أقضي لياليّ ... أجمع القطع المرسومة في مخيلتي ... لتستقيم في ذهني صورةُ الذي سيصبح زوجي !

وأخيراً ...

وبعد أن تمت الصفقة – أرجو المعذرة يا سليم إنّ أنا استعملت هذه الكلمة فأنا لا أجد أنسبَ منها لهذا النوع من الزواج – سُمح لي بأن أظهر في حضرتك ...

صُدمت وأنا أراك لأول وهلة ! فقد كنتُ ككل الفتيات ، أحلم بأمير ألف ليلة وليلة ... هذا الأمير الشاب الذي سيحملني ويطير ...

وإذا بي أرى رجلاً مسناً – في ذلك الوقت كان ابن الثالثة والثلاثين كهلاً في نظري – قصيرَ القامة ، يميل إلى السمنة ...

وحين مسكتَ يدي ورفعتَها إلى ثغرك دارت الدنيا في عينيّ وكاد أن يُغمى عليّ ...

ولم يفهم أحدٌ سببَ انفعالي ...

كان تأثري بالغاً وظاهراً ... لا لأنك فقط أولّ رجل يمسك يدي ويقبّلُها ... كما ظنوا ... لا !

ولكن ... لأنني في تلك اللحظة بالذات فهمتُ انّ هذا الرجل الذي أقابلهُ لاول مرة ...

هذا الرجل الغريب الذي انتقاه أهلي كي يصبحَ اقربَ شخصٍ إليّ، وأقضي معه بقيةَ أيامي ...

فهمتُ أن هذا الرجل ... من الآن ... يجب أن اعتبرَه طموحَ حياتي !!!

وظهرتِ الخيبةُ في امتقاع كسا وجهي ...

وفي الليلة السابقة لزواجنا ... لم أنم !

جلست أمام نافذة غرفتي أتأمل في السماء ... وأتساءل كيف ... كيف ستكون حياتي الثانية مع زوجي الغريب .. ؟

في تلك الليلة بكيتُ ...

لقد أخبروني أنّ كل فتاة تبكي في الليلة السابقة لزواجها ، لأنها ستترك البيت الذي قضت فيه طفولتها ... ولأنها تشعر برهبة في اقتحام الحياة الزوجية ...

هل بكيتُ لهذين السببين ؟

لا أظن ...!

بكيت لأنني كنتُ أعلم أنه لم يبق لخيالي الشارد الذي كان يصوّر لي المستقبلَ بالوفٍ الألوان ...

لم يبقَ لآفاقِ آمالي المترامية
لم يبق لطموحي ... لحريّتي ...
لم يبق لي ... سوى ... ليلة واحدة ...

٣

« هذه الدموع التي رأيتَها البارحة يا سليم تتراقص في محجريّ ، طالما داعبت جفوني في دمشق خصوصاً في سني زواجنا الأولى ...

كنتُ أبكي مع إنني في تلك الأيام كنتُ سعيدة ... أو بالاحرى كنتُ اعتبر نفسي سعيدة . فقد كنت أعتقد أن السعادة هي عدم الشقاء ولم أكن شقية معك !

كانت حياتي تسير دائماً هادئة ... ناعمة ... تماماً كدموعي ...

إني لأتساءل: لماذا كنت أبكي في تلك الأيام ؟ ما الذي كان يُحزنني ؟

ما الذي كان يَحفرُ على وجنتيّ ساقيتين للدموع ؟

والآن أعلم أن دموعي كانت في تلك السنوات البعيدة تطفر لا شعورياً بدافع الحنين ... بدافع الشوق إلى شيءٍ مجهول ... شيءٌ ما كنت قد اكتشفتُه بعد في حياتي ... ولم أكن أدري ما هو !

هل كنت أحبّك ؟

كنتُ أعتبر أن شعوري نحوك هو ما يسمونه حبّاً !

كنتَ الرجلَ الأوّلَ والوحيدَ في حياتي ولم أفكّرْ في يومٍ من الأيام أنّ بامكاني ألاّ أحبّ رجلي الوحيد ...

لماذا سيطر على شبابي هذا التفكير ؟ ألأن أمي غرستْ في نفسي مبدأ الإخلاص ؟ ألأن ظروفي لم تسمح لي بأن أحبّ غيرَك ؟ أم لأن الشخص الذي كان يستطيع أن يتشرب نفسيّتي فأحبه ... لم يحمله إليّ القدر في دمشق ؟

لستُ أدري ...

الآن تُفلت من الماضي بعض الحوادث الصغيرة الصغيرة وتمرّ أمام ناظريّ ... حوادث كانت تبدو تافهة وهي الآن تحمل كل المعاني .

لأنني الآن فقط فهمتُ نفسي

أذكرُ مثلاً أنك سافرتَ في آواخر السنة الأولى لزواجنا ...
كانت هذه أولَ مرةٍ تسافرُ فيها وتتركني وحيدة .
بكيت في ذلك اليوم ... وحزنتُ .
لماذا ؟
ألأنني كنتُ محبةً عاشقةً يغرقُ قلبها في الضياع لمجرد سفرِ الحبيب ؟
لا !
حزنت في ذلك اليوم لأن الشخص الوحيد الذي يؤنس وحدتي سافر وغدا بيتي أكثرَ هدوءاً مما كان عليه من قبل ...
الآن فهمتُ أنني بكيتُ في تلك الليلة على نفسي من وحدتها ... لا على قلبي من فراقكَ ...
ثم تعوّدتُ على فراقك ... فقد كانت أعمالُك تضطرك إلى السفر وكان يصعبُ عليك اصطحابي في رحلاتك التجارية ...
وفهمتُ أنا هذا
وفهمتَ أنتَ أنني سأفهم !
وفي السنين التالية تيقّنتُ من أن غيابَك لا يحزنني إطلاقاً فقد اكتشفتُ أنيسي الأكبرَ في القراءة . وأردتُ العودةَ إلى الدراسة أنا التي حرمني والدي من الحصولِ على شهادة الكفاءة كي أتزوّج !

ومن جديد غرقتُ في الكتب وبين الحروف ... حتى غرقتْ مكتبتي بالمجلدات القيمة . فتوسعتْ ثقافتي وأصبحتُ – بفضل الاستاذة أليس– أتقن لغتها الفرنسية .

أحببت كتبي لأنني وجدتُ فيها السبيلَ الوحيد إلى قتلِ تفاهة حياتي .

أذكرُ أنني مراراً آثرتُ البقاءَ مع كتابي على مرافقتك إلى زيارة أو سهرة ما !

وكنتَ أنتَ دائماً راضياً عني قانعاً بما أفعل ...

نعم ... كنتَ دائماً راضياً !

ألأن نفسَك كبيرةٌ ومسالمةٌ ؟ أم لأن طبيعتي المستسلمة كانت تسدّ عليك كلّ مجالٍ للنقد ؟

استطاعت الدراسة أن تقتلَ مللي لكنّها لم تملأ فراغي ... الفراغ الكامن في دنيا الأعماق !

حرمنا الله من الأطفال ... ورضيتَ أنت بل لقد قلتَ لي مراراً: إنك لا تريد أطفالاً ...

أما أنا ... فقد كنتُ أتمنى أن يكونَ لي طفلٌ يشاطرني وحدتي ... ويشغلُ ساعاتِ أيامي، ويمزّقُ صراخُه هدوءَ بيتي ...

كانت حياتي تافهةً وكنتُ أريد أن أعطيها معنى .

وبرغم الصلوات الكثيرة التي همستها ... وبرغم العلاجات التي اتبعتها – فقد كنتُ أعلم انني أُعاني اضطرابات بسيطة تسهل مداواتها – لم يسعدني الحظ بأن أصبح أماً ...

وهذا ما عكرّ عليّ أيامي .

أذكر أنك قلتَ لي مرةً :

« أنت تحبين الأطفال كثيراً ، وهذا يضايقني ، فأنا لا أريد طفلاً ... »

لم تفهم ! لم تفهم أنني كنتُ أريد طفلاً لأنني كنت في حاجة إلى العطاء ... في حاجة ماسة إلى السماح لتيار حساسيتي بأن يندفع في مجرى تحفره الظروف ...

كنتُ في حاجة إلى العطاء ... لاشعر بأنني أعيش ... لاثبت لذاتي أنني أعيش ...

كانت نفسي بركاناً يتأجج ...

بركاناً يخاف أن يموت قبل ان يتفجر ... يخاف أن ينطفئ دون أن يعطي لهباً وحرارة ودفئاً ...

نعم ... كنتُ في أشدّ الحاجة إلى العطاء ...

أما بالنسبة إليك ...

فمع أنني بقيتُ معك عشر سنوات إلا أنني لم أشعر في يوم من أيامها بأنني أعطيك !

يا للسخرية !

كنتَ تملك وجودي ولم أكن أشعر بأنني اعطيك شيئاً ...

كانت حياتُنا « روتينية » ... وكانت علاقاتنا « روتينية » وكانت نظراتنا « روتينية » ...

كان كل شيءٍ بيننا عادة ...

كان وجودك كلّه معي ... عادةً وجدتْ في حياتي !

فكيف أحصر اهتمامي في عادة ؟

وكيف أصبّ عواطفي في عادة ؟

والعادةُ تقتل الاهتمام وتطفيءُ العواطف !

أما انتَ !

فماذا كان موقفُك أنت ؟

هل كنتَ تحبني ؟ نعم ... أنا لا أشك في هذا، ولكنني واثقة بأن حبّك كان لا يتبدل لو كانت زوجتك امرأةً أخرى ...

بلى يا سليم ... كنتَ تحبّ زوجتك ... لا أنا !

*

ومرت السنون ...
والفراغ يزدرد أيامي ...
وفي السنوات الثلاث الأخيرات مللتُ ...
مللتُ كل شيءٍ حتى القراءة ...
مللت السهراتِ الرتيبة والأيام الباهتة ... مللت الرجال
– أزواج صديقاتي – الذين كانوا يحومون حولي ...
مللت أصدقاءك الذين كانوا ينتظرون إيماءة مني كي
يخونوا العاطفة الصافية التي تربطهم إليك ...
مللت صديقاتي وأحاديثهن التافهة ...
مللت أهلي وتفكيرهم المادي ...
مللت ...
وعادت دموعي تسيلُ على وجنتيّ ...
وفي هذه السنوات كنتُ أعرف سبب بكائي ...
الفراغ !
كانت حياتي معك كما قلت من قبل هانئة ... لكن
مملة ...
وأما الفراغ ...
فأنت ما استطعت في يوم من الأيام أن تملأ فراغ قلبي ،
لأنك لم تنظر إليّ مرة كإنسانة لها روح وأحاسيس
وشعور !

كنتُ المرأة التي يجب عليها أن تعتبر نفسها سعيدة لأن زوجها ميسور ويقدم لها جميعَ ما تشتهيه من لباس وأكل ... وكتب !

وفي الحقيقة ، كانت حياتي اليومية أو عالمي الخارجي الظاهر رغداً وسعيداً بالنسبة لمفهوم المتفرجين ولمفهومك أنت ...

ولكن ...

هل فكرتَ يوماً يا سليم في أن عالم النفس عالم كبير واسع يتخبط فيه الإنسان ؟

عالم له أحكام ومطاليب وآراء ؟

عالم قد تضيئه نظرةٌ ... وتحييه كلمة ... ويستعبده قلب مرهفُ الحسّ ...

عالم لا يأبه إطلاقاً بالمظاهر ... ولا بالغنى ... ولا بالملابس ولا بالأكل ؟

هل فكرتَ في يوم من الأيام أن هذه المرأة التي اشتريتَها كي تكملَ أثاثَ بيتك ... هي إنسانة ؟ هي نفس بشرية تؤثر الفَ مرة أن تشاركها فكرةٌ من أفكارك على أن تقدم لها أطيب المآكل ؟

هل مرّ في خاطرك أن هذه النفس كانت تنتظر منك أن تفهمها ... أن تحاول مشاركتها آلامها ؟ فقد كانت تتعذب ولو أنك كنتَ تقدم لها من الملابس ... أنفسَها ؟

للأسف ... أنت لم تقدّر في كل تلك الأيام أنني أعاني من الفراغ أمرّه ...

حتى أمسيتُ لا أطيق عيشي ... وراح اليأس يلتهم ثواني أيامي الطويلة ...

إلى أن بدا لي خيطٌ شاحبٌ من الأمل ... فتمسكت به بكل قواي كالغريق المستجير بقطعة من الخشب صغيرة ...

قالوا : في باريز طبيب يأتي بالمعجزات !

يجب ... يجب أن أعالج نفسي وأحملَ وأصبحَ أماً ...

وبما أنك كنت لا تريد أطفالاً فقد اصطنعت المرض وادعيت بأنني أشعر بأوجاع غريبة ... وطلبت منك بإلحاح ان تصحبني في رحلتك الأخيرة هذه إلى فرنسا فأقابل هذا الطبيب الشهير الذي سمعت عنه الكثير .

ورافقتك إلى مرسيليا منذ يومين ...

أذكر آخر الكلمات التي تبادلناها البارحة في المحطة . أتذكرها أنت ؟

قبّلت جبهتي وقلتَ لي :

ـ أرجو لك التوفيق ...

فنظرت إليك بعطف .

لست أدري لماذا شعرت نحوك بعطف في تلك اللحظة ، ثم تمتمت :

ـ آسفة أن أتركك وحيداً ...

فأجبتني بلهجتك الباردة :

ـ لا بأس ... لن تغيبي سوى ... ليلة واحدة ...

٤

« — من هنا ... قطار المسترال ... من هنا ...

— *Madame ... oui c'est le Mistral ... allons ... vous allez manquer le train ... allons ... Madame ...*

— سيدتي ... الساعة الثالثة وست دقائق ... هيا يا سيدتي ... خمس دقائق فقط ... هيا ...

كانت هذه كلمات المفتش الواقف على مدخل القطار

وهو يناديني ...

ونظرت إليك ، وشددت على يدك دون أن أتفوّه بأية كلمة ...

وأسرعت الخطى ... وقفزت على السلم ورميت ابتسامتي في يد المفتش الممتدة لمساعدتي على الصعود .

كان القطار قد ابتدأ يتحرك ...

ووجدت نفسي مع حقيبتي الصغيرة في ممرّ ضيّق ... ضيق ... والجدران تتقاذفني ... وأنا أحاول أن أحفظ توازني بكتفيّ .

كنت أشعر بتعب لذيذ، وكنت أودّ أن أرمي نفسي في أحضان مقعد مريح .

كنت أسير متلكئة في الممر ... وأمد رأسي في كل مقصورة وأعود خائبة ... فقد كانت جميع الامكنة مشغولة .

وكان هناك رجل يبحث مثلي عن مكان ... وأخيراً سمعته يقول :

— للاسف وصلنا متأخرين ... لم يعد هناك أمكنة ... لا فائدة من البحث ... الأحسن أن نظلّ واقفيْن في الممر ...

ورأيته يسند ظهره إلى النافذة ويشعل لفافته .

لم أشأ أن أحذو حذوه، فقد كنت تعبة وأودّ الجلوس ...

وبقيت أسير في الممرات الضيّقة المتصلة حتى وصلت إلى « البار » .

ولكن للأسف ...

كان هذا المكان يعج بالمسافرين أكثر من غيره .

كان الديوان الخشبي الوحيد فيه، والذي يكوّن ركنه الأيسر ، مختفياً من كثرة الجالسين عليه .

وكان هناك كرسيان صغيران لا يتسع الواحد منهما لأكثر من شخص ولكن الازدحام جعلهما يتسعان لعدة أشخاص .

وقفت حائرة ... ضائعة بين الواقفين ... ثم شققت لنفسي طريقاً بينهم واقتربت من الركن المرتفع — البار — والذي سميّت المقصورة باسمه ، ووضعت حقيبتي عند قدميّ ، وطلبت فنجاناً من القهوة .

وحانت مني التفاتة إلى الديوان ، فرأيت رجلاً متقدماً في السن ولكنه من هؤلاء الذين يحاولون الظهور بمظهر الشباب ... يبتسم لي ببلاهة .

ويبدو أن التعب كان يُلبس شكلي حلة من الذبول المغري ... فقد رأيت الكهل يبتعد قليلاً ويلتحم بالشخص الجالس إلى جواره ... ثم يدعوني إلى الجلوس .

شكرته باحناءة رأس، وجلست إلى جانبه على حافة الديوان وألقيت رأسي على الجدار وأغمضت عينيّ .

وكنت إذا ما رفعت أجفاني رأيت أنظار الكثيرين منصبةً عليّ .

وأعتقد أن السبب في هذا هو أنني كنت المرأةَ الوحيدةَ التي تسافر بمفردها، أو على الأقل التي لا تحدّث أحداً من المسافرين .

وكان معطفي الأسود يزيد في شحوب وجهي وأنت تعلم أنني لم أزين وجهي قبل ركوب القطار، فقد كنت تعبة، واعتقدت بأنني سأنام طوال هذه الرحلة .

ثم ... لم أكن أدري أن النساء في تلك البلاد يعتنين بمظهرهن إلى أقصى الحدود لركوب مثل هذا القطار وكأنهن في حفلة ساهرة .

ويبدو من النظرات التي كانت تحدق إليّ أن شحوبي كان يضفي على شكلي شيئاً من الغموض .

كنتُ المرأة الشاحبة الباهتة الوحيدة في مقصورة تمايلت فيها النساء كباقات ورد ملونة .

وجيء بالقهوة .

فاشعلت لفافة وارتشفت قهوتي، وأنا أشعر بأن مجاوري يلحظني بسكون .

ثم عدت ألقي رأسي إلى الجدار وأنا أراقب من خلال دخان لفافتي أفواج المسافرين .

كنت أنظر إلى الجميع بعين بعيدة ... ناقدة ... ومجرّدة .

فقد كنت وحيدة بين الجميع ... وغريبة عن الجميع ... وهذان العاملان أعطياني شعوراً باللامبالاة ... واللامبالاة برأيي قوة ... قوة كبيرة .

لوحات حية تمر أمامي فتصبغها لامبالاتي بالسخرية ... وتسلّيني .

هذا الشاب الأشقر يحوم منذ لحظات حول هذه الفتاة الناعمة ذات النظرات البريئة ... ولكن الفتاة ملتصقة بأمها ... فما العمل ؟

ها هو ذا يعطي مكانه للأم ... ويشعل لها اللفافة ... ويحدثها ... وبينما تضحك الأم بسذاجة لنكتة ألقاها ... يتغامز هو والفتاة التي فقدت فجأة نظراتها البريئة !

هناك في الركن الأيمن ... تقف سيدةٌ شقراء ... لابد أنها أمريكية ... سائحة أمريكية ثرية ...

فهذه التنورة المنفوخة التي ترتديها ... وهذا الفرو الذي يلفّ كتفيها يدلان على أنها ثرية ... ويجب أنْ تكون

أمريكية كي ترتدي هذه الألوان المتنافرة التي تشكل هندامها ...

ثم إنها تتحدث الإنكليزية بصوت مرتفع ... مرتفع جداً وتضحك ضحكة رنانة ...

إنها حلوة برغم آن زينتها الزائدة تكاد تمحو معالم وجهها . إن جمالها الصارخ يتعبني الآن ... عيناي بحاجة إلى هدوء ... إلى راحة ...

وأدرت نظراتي لتتعلق بشعر أحمر طويل ... تأملت صاحبته ...

إنها شابة في ربيع عمرها ، تتأبط ذراعيّ رجلين يظهر أنهما ثملان بشذا شعرها الأحمر ...

ورأيتها تتمتم كلمة لم أسمعها ... فاذا بأحد مرافقيها يقترب منها ... ويقبلها ...

ابتسمت للمنظر وعدت أغمض جفنيّ، فسمعت مجاوري المسنّ يسأل :

— هل تريدين سيجارة ؟

شكرتُه بابتسامة ... فقد كنتُ لا أودّ التحدّثَ إلى أحد ...

وعدت أراقب المسافرين ...

هذا الشاب الغارق في شرب « الويسكي » يبدو عليه الحزن ...

لماذا ؟

وهل عرف السعادة في حياته كي يفهم معنى الحزن ؟

وعاد مجاوري يسألني :

— هل ... هل ترغبين في كأس من المشروب ؟

— كلا شكراً ...

— هل تريدين فنجاناً ثانياً من القهوة ...

— كلا شكراً ...

— هل تسمحين بأن أطلب من أجلك أي شيء ؟

— شكراً ... لا ...

صمت قليلاً

ولكنه كان يودّ محادثتي بأي ثمن، ولم يستطع مقاومة رغبته ... فعاد يقول :

— هذه الرحلة متعبة ... فعلاً متعبة ... هل أنت تعبة ؟

ضحكت من إلحاحه ... واجبت بلهجة قاطعة ولو أنها ضاحكة .

— فعلاً ... أنا تعبة جداً ... وأودّ النوم ...

استكان جاري

فشعرت أنا عندئذ برغبة في مراقبته ...

وتسللت نظراتي من بين الأهداب إلى يده الممتدة أمامي على الطاولة ...

ولذّ لي أن اقرأ شخصيته في أنامله !

يد صغيرة مجعدة ... قضى صاحبها ساعةً أو أكثر تحت رحمة المزيّن كي يقلم له الأظافر ...

خاتم ماسيّ كبير يستغيث بريقه وكأنه يحتج على هذه التجاعيد التي تفقده رونقه !

وساعة ذهبية تتدلى على المعصم !

إن مجاوري رجل ثري لاشك، ولكنه من أثرياء الحرب وإلا لما زيّن يده بكل هذه المجوهرات ...

وهو رجل سخيف لأنه يقبل أن يكون المال نفوذه الوحيد ... وإلا لما امتدت يده بهذا الاسترخاء على الطاولة تتحرك بكسل ... ودون هدف .

إن مجاوري رجل تعوّد الحصول على ما يشتهي بالمال .

ولكن ...

هل قدّر له يا ترى أن يكتشف أن المال لا يشتري الشباب ؟

وهنا فجأة ... تذكرتك يا سليم ...!

تذكرتك لأنك أنت أيضاً تعتقد أن المال يشتري السعادة .

ولكن نفسي أبت أن أقارن بينك وبين هذا الشخص ...

وأردتُ أن أدفع أفكاري في مجرى جديد ، فرفعت أجفاني لترتع نظراتي في سمرة رائعة ...

رجل أسمر يتحدث إلى فتاة شقراء ...

رجل أسمر في هذا القطار ؟

لابد أنه من بلاد الشمس ... بلادي ...

ضاعت نظراتي في سمرته ... ونسيتُ أن هذه النظرات المنسكبة عليه قد تضايقه ...

ولاحظت فيما بعد ... لاحظت فجأة أنه ارتبك ... ثم حياني بابتسامة ...

ولم يفهم ...

لم يفهم أنني لم أكن أنظر اليه ... لم أكن أرى شكله ... كنت فقط هائمة في سمرته

فقد كنت أرى في سمرته ... بلادي ...

وأسبلت أهدابي على ليالي بلادي ... ليالي دمشق ... ليالٍ وليالٍ ...

ليالٍ صيفيةٍ مضيئة كنت أرافقك فيها إلى الصحراء ...

ونجلس هناك في أحد المقاهي وحيدين ... صامتين ... وتتلهى انت بطبق من الأكل بينما أشرد أنا في التفرج على فئات الشباب المرحين الذين جاءوا إلى الفضاء الرحب ... يطلبون من القمر أن يطفئ شمس النهار الملتهبة في وجوههم ...

وكنت ابتسم لفرحهم ... ثم أطير وحيدة ... إلى الأعالي ... وأسامر النجوم ...

وليال أخرى كنا نعدّ ساعاتها مع الأصدقاء المحبين الذين كانوا يلمون النجوم لينثروها بين يديّ وهم لا يدركون أن هذه النجوم صديقاتي ...

وليال شتوية طويلة ... طويلة ...

كنت اقضيها مسهدة ... انزلق في فراشي ... واتأملك وأنت غارق في نوم عميق ... عميق ...

وأتساءل لماذا يحب النوم جفنيك ويرغب دائماً عن جفنيّ ...

وأبقى ساعات ... أتقلب ... أتقلب في فراشي ، أفكر في الحياة كلها وفي لاشيء .... وأبحث في مخيلتي عبثاً ... عن ذكرى حلوة مفقودة ... وعن أمل مشعّ مجهول ...

وعن لا شيءٍ ...
ويطول ... يطول ليلي ...
نعم ...
ليالٍ ... وليالٍ ... تسلسلت تحت أهدابي ...
وابتسمت لنفسي
وأنا أفكر في أنه كان يكفي ... كي تمرّ جميع ليالي دمشق في خاطري ... وتزخرفها ابتساميّ ...
كان يكفي أن أبتعد عن دمشق وعنك يا سليم ولو ... ليلة واحدة ...

٥

« — هل تريدين « سيجارة » ؟

تنهّدت بتعب وأجبت جاري الملاح دون أن افتح عينيّ أو أدير رأسي :

— كلا ... شكراً ...

وسمعت طفلاً يزعق ثم يبكي ... فرفعت أهدابي بثقل لتلتقي نظراتي فجأة بنظرات خضر حادة كانت تلفني بصمت .

جمدت عيناي لحظة ...
واختلطت نظراتي بتلك النظرات ...
لم يتغير أيّ تعبير في وجهينا ...
ولم تختلج أهدابنا ...
كل ما كان ... أن نظراتنا المتعانقة كانت سلكاً مضيئاً شعّ في نفسينا ...
ورأيته يشيح بوجهه ... وجهه الذي لم أرَ منه سوى العينين ... ويكمل حديثه مع صديق كان واقفاً إلى جانبه . فأسبلت جفنيّ هذه المرة على الضوء الجديد .

لكنني لم أستطع إغماض عينيّ طويلاً ... وكأن هذا البريق قد أحرق الأجفان ...
فعدت أرفع أهدابي ...
ومن جديد ...
رأيت هذه النظرة العميقة الحادة تلفني ...
ارتبكت ...
ارتبكت قليلاً ...
ولإخفاء ارتباكي ... التفتّ ناحية الرجل المسنّ فوجدته كالعادة يبتسم لي ببلاهة ... وكأنه ينتظر أن ألتفت إليه كي يعود إلى أسئلته :

— هل أنت ذاهبة إلى ليون ؟ ديجون ؟ باريز ؟

أجبتُ بكسل :

— باريز

وددت لو أجيب :

« لست أدري ! »

ففي تلك اللحظة لم أكن أفكر في أنني ذاهبة إلى باريز ولا إلى أي مكان آخر ...

كنت فقط أشعر بأنني في قطار، وبأنني لا أود شيئاً ...

ولكن جاري اعتبر جوابي البسيط تشجيعاً على الخوض في حديث ... إذ راح يطرح عليّ أسئلة فارغة تافهة ... وكانت أجوبتي تنحصر في احناءة رأس أو في همهمة كسلى ...

وحاولت أن أُظهرَ لامبالاتي بالعودة إلى مراقبة المسافرين ...

ولكن عبثاً !

كانت نظراتي تأبى الا ان تسيل في بحيرتين صافيتين ...

من هو ؟

من هو صاحب هاتين العينين ؟

هاتين العينين اللتين استولتا على نظراتي، فمنعتاني من رؤية صاحبهما ؟

من هو ؟
ما هو شكله ؟
وأشعلت لفافةً ...
ومع الدخان المنساب من ثغري ... انسابت نظراتي عرائس تتمشى على قامته ... وتحمل صورتها على أمواج الدخان ...
كانت الانفة والكبرياء تبتسمان في قامته الطويلة ...
وكان معطفه الكحلي المزرّر يزيد في أناقة وقفته والمنديل الأبيض الحريري المختفي تحت الياقة يعانق رقبته برفق ...
وتوقفت نظراتي عند اللفافة المتكسرة بأنوثة ورقة بين أصابعه ...
وارتفعت معها إلى الشفتين الكبيرتين المبتسمتين بسخرية ... ثم إلى الانف الحاد الحازم ...
وبوجل ...
اقتربت من العينين ... العينين اللتين ملأتا وجهه النحيل ...
وغردت في هاتين الواحتين اللتين سكبت الطبيعة فيهما ربيعها ...
وفجأة ...
اخترق هدوءَ تأملاتي صوتُ جاري السمج الذي وصل إلى سمعي كعاصفة مزقت يوماً مشرقاً مبرعماً :

ـ هل أنت فرنسية ؟ أجنبية ؟

لم أردّ ...

ولكن صوتَه أعاد نظراتي السارحة الشاعرية إلى الواقع ...

فرحت أراقبُ الرجل الواقفَ قبالتي بصورة مجردة . إن الشبابَ يصيح في كلّ سنة من سنوات عمره الزاحف نحو الأربعين .

وهو يصغي إلى حديث شاب جميل الطلعة ... مشرق الابتسامة ... يتراوح عمره ما بين الثالثة والثلاثين والسابعة والثلاثين ...

وتدل نظرته المتلاعبة وحركته المستمرة على انه مغامر أو « دون جوان » ...

أما كأس البيرة في يد كل منهما فكانت تظلّ مملوءة مهما جرعا منها ...

ـ هل أنت فرنسية ... هل أنت أجنبية ؟

عاد السؤال يخدش سمعي .

لم أعد أستطيع احتمال ملاحقاته ...

فأجبته ببرود وتهكم :

ـ حسب الظروف

وأنا أراقب الرجلين وهما يستوليان على الكرسيين

اللذين تركهما أصحابهما .

وفكرت في أن أترك مكاني ولكنني لم أشأ أن أبدو منزعجة . فالانزعاج نوع من الاهتمام ... ولو أنه اهتمام سلبي ...

لذلك تمسكت بأول فرصة واستغللتها ... فقد شاءت الظروف أن تقترب مني امرأةٌ تحمل رضيعها وتحضن بذراعها الأخرى كتفيّ صبي مكشر ، فهمت فوراً من نظرته الشقية أنه هو الذي كان يزعق ويبكي منذ لحظات ...

فوقفت بهدوء وقدّمت للأم المرتبكة التعبة مكاني الضيّق .

وطبعاً لم يعد هناك مكان أقف فيه فابتعدت نحو الجدار المقابل في المقصورة .

واسندت كتفيّ إلى النافذة ، ورحت انظر إلى العتمة الشفافة التي ابتدأ المساء يغلف بها الطريق .

وكنت أشعر بأن نظرات الرجلين تحدق بي ، فتدغدغ غرور الأنثى الكامن في أعماقي ... وتطربني ...

وكنت أتحاشى أن ألتفت إليهما خشية أن يبادرني أحدُهما بالحديث ، فاضطرّ إلى صده ... وما كنت راغبةً في صدهما !

ولكن ...

اقترب مني شاب وفتاة والتصقا بالنافذة فكان لابدّ من ابتعادي قليلاً ، وأدرت نظراتي فوقعت على صاحب

الابتسامة المشرقة الذي وقف فوراً وقال بلهجة مهذبة باسمة مشيراً إلى الكرسي :

– تفضلي سيدتي .

أجبته بلطف :

– شكراً ... لا أودّ الجلوس ...

– ولكنك ستتعبين من الوقوف ...

كانت لهجته طبيعية جداً لذلك جاءت لهجتي ناعمة :

– ربما ... ولكنّي تعبتُ من الجلوس ...

ردّد باستغراب :

– تعبتِ من الجلوس ؟ كيف ؟

ابتسمتُ :

– سمّه مللاً إذا شئت ... والملل متعب !

أجاب ضاحكاً :

– فهمت ...

وجلس .

أما صاحب العينين الخضراوين ... فقد كان ينظر إلينا بابتسامة ساخرة فيها شيءٌ من التسلية تتراقص على شفتيه ... ابتسامة تداعبها نسمة إعجاب كنت أحسّ بها في ربيع عينيه الهاديء .

أما حاجبه المرفوع بأنفة فقد كان يشعرني بأنه يعتبر

مناقشتنا بشرى مغامرة لصديقه ...
مغامرة قد يتسلى هو بمراقبتها !
عجبتُ !
إنّ هذا الرجل يعتبر نفسه فوق مستوى الآخرين !
وهو يعلم أن صديقَه الطيّب مغامرٌ من الطراز الأول ...
وهذا يسلّيه !
إنه من نوع الرجال الجَدِّيّين الذين لا يتحدثون كثيراً ...
ولكن ...
ألا يرغب في محادثتي ؟ ألا يرغب هو في التعرف إليّ ؟
ومددت يدي لآخذ لفافة من العلبة النائمة في جيب معطفي ، ورفعتها على مهل إلى الشفتين الذابلتين ، ونظراتي سارحة في أسئلة تقفز في الفضاء ...
وقبل أن أفكر في إشعالها ، كانت لهبة من النار تداعب رأس عروستي الحائرة ...
ورحّبتْ لفافتي بالمداعبة ، وسحبتُ نفساً طويلاً قبل ان التفتَ إلى مصدر اللهب ...
ثم دارت نظراتي ببطء :
كانت يده ممتدة بهدوء ...
وكان يتأملني بثبات وعمق ،
دون أن تضيءُ نظرتَه ابتسامةٌ ...

ودون أن تداعب هدبيه رعشة ...
ودون أن يورق على شفتيه رجاء ...
ولكن ...
كان في رزانته ثقة ...
وكان في حزمه اهتمام ...
وكان في اهتمامه كبرياء ...
أعجبت بشخصيته القوية ... وأحببت اهتمامه الرصين ...
وقبل أن أشكره بابتسامة ...
التقت نظراتنا ...
ومن جديد ... جمدت عيناي لحظة ...
ثم ارتفّت أهدابي ... وأردت أن أقول شيئاً ...
لكنه التفت إلى صديقه يحدّثه،وكأن مهمتَه معي قد انتهت !
فخنقت لفافتي بشفتيّ ...
وضاعت نظراتي في عتمة الطريق

٦

« القطار يجري ويهدر ...
وهديره يختلط بأصوات المسافرين ... ويخدّر أعصابي ..
الساعة السادسة والنصف ولم نقطع بعد نصف المسافة .
السرعة تخف ... تخف ...
نحن حتماً نمرّ في مدينة . ويبطيء القطار سيره ... ويقف !
وسمعت المفتش يقول :
– ليون ... ليون ... سيداتي ... سادتي ... نحن في ليون

ونظرتُ من النافذة فرأيت حشداً من الناس يندفع نحو القطار ...

ومددت يدي لأتناول لفافة فألفيت العلبة فارغة . وإذا بصاحب الابتسامة المشرقة يقدم لي علبته ، فسحبت منها واحدة ، وهززت رأسي شاكرة دون أن أبتسم ...

وابتدأ القطار يسير ... وفجأة رأيت البار يمتلىء بالمسافرين القادمين من ليون ...

وأصبح وقوفي تحت رحمة المتمايلين مع ازدياد سرعة القطار .

وكأن الصديقين لاحظا هما أيضاً ذلك ... فوقف « الدون جوان » وابتسم قائلاً :

ـ إذا كنت تودين الجلوس الآن ... فتفضلي !

التفتّ إليه ...

فداعب سمعي صوت ثابت عميق ساخر ... صوت يوحي بقوة شخصية صاحبه ... ينطق :

ـ وإذا كنتِ لا تودّين الجلوس ... فتفضلي أيضاً وقوفك بين الناس مزعج !

شعرت بقوة خفية في هذا الصوت الواثق ترغمني على الجلوس ...

فاتخذت مقعداً من الكرسي الصغير وسألت بلهجة عادية :

ـ لماذا يعجّ القطار بالمسافرين ؟ وهل هو دائماً هكذا ؟

أجابني دون أن يرفّ له هدب :

ـ اليوم هو الاثنين يا سيدتي ... وكل رجال الأعمال يذهبون إلى العاصمة في هذا اليوم، ليعودوا إلى بلدهم يوم الخميس ، فيقضوا فيه نهاية الأسبوع ...

قلت بصوت منخفض أحدّث نفسي :

ـ لو كنت أعلم ذلك لأخرّت رحلتي !

رفع حاجبه معاتباً ... ثم تمتم بهدوء :

ـ من حسن الحظ ... انك لم تعلمي ...

والتقت نظراتنا ...

فاحمرت وجنتاي وأدرت وجهي فوراً لتلتقي نظراتي بصاحب الابتسامة الذي سألني :

ـ هل أستطيع أن أقدم لك أي شيء يا سيدتي ؟

ـ لا شكراً ...

فنظر إلى صديقه :

ـ وأنت يا كميل ؟ كأساً من البيرة ؟

فضحك هذا الأخير وقال :

ـ طبعاً !

اسمه كميل ؟

وفي أقل من لحظة حاولت ان اجمع بين هذا الرجل الجالس قبالتي وبين اسمه ... كميل .

كميل ... اسم جميل !..

ولكن ...

هل أنا معجبة بهذا الاسم في الحقيقة ؟

أم أن شيئاً في شخصية حامله يوهمني بأن هذا الاسم جميل ؟

ووضع حداً لتساؤلي كميل الذي التفت إليّ معترفاً :

ـ الحقيقة ... أننا مذ رأينا مأساتك مع جارك المسكين هناك ، لم نعد ندري كيف نتصرف ...

رفعت حاجبيّ مستفهمة فأجاب :

ـ نعم ... لقد راقبنا كل حركاتك ... ونحن الآن نحاول أن نتفادى الأخطاء التي وقع جارك فيها ...

قلت بلهجة مازحة خبيثة :

ـ اعتقد أن رغبته الملحّة في محادثتي ... كانت نقطة انطلاق الأخطاء ...

ضحك الثاني ،وقال بطفولة :

ـ إذا كان هذا صحيحاً فأرجو أن تعتبري أننا لا نرغب إطلاقاً في محادثتك ...

شعرت فجأة بالنظرات الخضر تخترق أعماقي ، وجاء

الصوت الحازم يقول :

– إن جورج ، صديقي ، مهذب جداً ... لكنه لا يقول الحقيقة في بعض الأحيان ... والحقيقة هي أن رغبتنا في محادثتك تفوق كل رغبة ! ألا تعترف بهذا يا جورج ؟

أجاب الصديق ضاحكاً :

– الأفضل أن تسأل السيدة زجاجات البيرة الفارغة ...

والتفت إليّ شارحاً :

– نحن نشرب منذ وقفنا هنا ... وأؤكد لك أننا لا نشرب حباً بالبيرة !

ومرت في هذه الاثناء سيدة جميلة قطعت على جورج جملته ، فقلتُ أغيرّ الحديث :

– هذه المقصورة تغصّ بالسيدات

أجاب جورج ساخراً :

– بالنساء يا سيدتي

وكأن كميل قد اعتبر هذه الجملة بداية مغازلة ترفرف بيني وبين صديقه ، إذ وقف قائلاً :

– لعلك تعبت من الوقوف يا جورج ... اجلس قليلاً ... لست أدري لماذا تضايقت .

ولكن جورج بسطحية شعوره، وطيبة نفسه، خنق المضايقة

في صدري وهو يقول :

ـ لا ... شكراً ... سأذهب لآتي بعلبة لفائف .

والتصقتْ به السيدة الجميلة فانحنى يهمس لنا :

ـ النساء دائماً جميلات يا سيدتي ...

وابتعد ...

ابتسمت بتسلية ، ولكن كميل الذي تعوّد تصرفات صديقه لم يبال ، بل راح يتأملني ويتفحصني وكأنه يدرس شخصيتي ...

ثم قال :

ـ يخيل إليّ أنك سيدة تخرج من روايات ألف ليلة وليلة ... أنت لست فرنسية حتماً ... فأسرار وأسرار تختفي وراء عينيك ... هاتان العينان لا يمكن أن تكونا فرنسيتين ... من أين أنت ؟

طربت لجو الأسرار الذي أحاطني به، ولم أشأ أن أمحوه بجوابي ... فتمتمت بكسل :

ـ من الدنيا ... من بقعة جميلة على هذه الأرض ...

ثقلت نظراته عليّ ... فسألته أغيّر الحديث :

ـ هل أنتما من رجال الأعمال ؟

لم يردّ بل ظلّ يتأملني، وضعت أنا في هذا العالم الذي حملني إليه ...

وكأنه تنبه فجأة على سؤالي :

ـ عفواً ... كنتِ تقولين ... ؟

ابتسمت بلطف :

ـ كنت اسأل إذا كنتما من رجال الأعمال ...

هز رأسه بأدب وتمتم :

ـ نعم يا سيدتي ...

وكان جورج قد عاد مع علبة اللفائف ... فقدم لي لفافة ، وأخرى لصديقه الذي ابتدره :

ـ السيدة تقول إنها من بقعة جميلة على هذه الأرض ... أية بقعة ؟

تأملني جورج ثم سأل بسذاجة واستغراب :

ـ الستِ فرنسية ؟

سال غرور الأنوثة في أناملي ... فارتفعت وحضنت وجهي ... وتمتمتُ بغنج وخبث :

ـ وهل هذا الوجه فرنسيّ ؟

لم ادرِ أن حركتي البسيطة سيكون لها تأثير كبير على النظرات الخضر ، إذ امتلأت العينان بحنان فائض ... طاف في أسلاك تضمني ...

ولم ينطق صاحب العينين بل ابتسم راضياً ، بينما أجابني جورج :

ـ لا ... وجهك ليس فرنسياً ... ولكنك تتكلمين الفرنسية بطلاقة ...

ضحكتُ :

ـ وهل تظن أن الفرنسيين وحدهم يجيدون الفرنسية ؟ وهل من المستحيل أن يجيد المرء لغة اجنبية ؟

هزّ رأسه راضخاً :

ـ لا ... ليس مستحيلاً ...

وجرع من كأسه ... ثم التفت إلى صديقه الذي كان يتأمل كأسه الفارغة بتساؤل ،وقال مازحاً :

ـ سنجرع البيرة ما دمنا في هذه المقصورة يا كميل ...

ثم سألني :

ـ أين مقصورتك ؟

ـ هنا ...

لم يصدق :

ـ كيف ... هنا ؟

ـ نعم هنا ... لأنني لم أجد أي مكان في بقية المقاصير ...

هتف جورج :

ـ هذا عظيم ... ففي مقصورتنا مقعد فارغ هل تشرفينه بقدومك معنا ؟

لم أجب .

وقبل أن اتخذ قراراً في ذلك ، جاء الصوت الثابت يقول :

– رحمة بالبيرة ... يا سيدتي ...

فاردف جورج :

– وبنا ...

ضحكت ، فوقف كميل يسأل :

– أليست معك حقائب ؟

– حقيبة صغيرة هناك ... عند الديوان ...

– سأحضرُها ... هيا بنا ...

٧

شعور غريب كان يملأ نفسي، وأنا أمشي في الممرات الطويلة ... الضيقة ... المهتزّة .

شعور جميل هدهد أنوثتي ، وغفا في ابتسامة ناعمة على شفتيّ ...

كان مبعث هذا الشعور سبباً تافهاً ... وهو علمي بأن رجلاً قوياً ... جدّياً كان يسير ورائي حاملاً حقيبتي ...

في اللاشعور صوّر لي خيالي الشرقي الواسع أنني أنثى

ضعيفة يدللّها رجلها القوي !

الممرات تلوكنا ... تجرّنا ... وتلفظنا في ممرات أخرى .
وفي نهاية كل ممرّ كان جورج الذي يتقدمني يفتح لي الباب ويضحك قائلاً :
– لم يبق سوى أربعة ممرات
ثم يشرح :
– مقصورتنا هي الثالثة في العربة الثالثة من القطار ...
ولكن لا تيأسي ... لم يبق سوى أربعة ممرات ...
وبعد لحظات يهتف :
– لم يبق سوى ثلاثة ممرات ... لم يبق إلا ...
وانا أتبعه ...

وأخيراً ...
التفتّ إلى كميل وتنهدت :
– ما أطول هذا القطار !
فسأل بقلق حنون :
– هل تعبتِ ؟
جاء صوتي مقطعاً مع اهتزازات القطار :
– لا... لكنني ... مللت !

ردّد :

— الملل ... الملل والكسل ...! انا اعيش في اجواء الف ليلة وليلة ...

وسمعت جورج يقول :

— لم يبق سوى ممر واحد ... ولكن لننتظر قليلاً ... فهذا الممر أمامنا يكتظّ بالمسافرين

وأردت ان اقف ...

ولكن القطار في هذه اللحظة اهتزّ بعنف ... فالتوتْ قدمي وشعرت بأنني افقد توازني واهوي إلى الخلف ...

وعوضاً عن أن تتلقّاني الأرض وجدت سنداً في صدر قويّ ثابت ...

وامتدّت اليد تمسك ذراعي بقوة وتعيد إليّ توازني ... وانساب الصوت الحازم رقيقاً في أذني :

— انتبهي ...

التفتّ ...

فكاد أن يتلامس وجهانا ...

والتقت نظراتنا ...

فارتجفت الشفتان الكبيرتان ...

أما أنا ...
فزممت شفتيّ بعصبية ...
ونفضت رأسي ... وتبعت جورج الذي كان يقول :
– هيا بنا ... هذا آخر ممر ...

٨

« — هذه هي مقصورتنا !

مددت رأسي من الباب فلم أجد سوى مكانين فارغين .

سألت :

— أين المكان الثالث ؟

مدّ جورج رأسه بدوره ليهمس بانزعاج :

— يا للمصيبة ! لقد احتله هذا السمين !

وضحك كميل :

— هذا أمر طبيعيّ ... لقد تركنا أماكننا ، وبقينا

ساعات نجرع البيرة ...

ثم قال محاولاً إنقاذ الموقف :

— هناك مقعدان فارغان ... لماذا لا تجلسان عليهما ؟

التفتّ إليه بتحدٍ وكأنه أهانني بهذه الكلمات وقلت بلهجة قاطعة :

— أنا لا أودّ الجلوس ؟ سنظلّ كلنا هنا ... في الممر ... والذي يتعب يدخل إلى المقصورة ...

وافق جورج :

— بلى ... سنظلّ في الممر ... لا أحد منا يشعر الآن بتعب ...

وكان الممر في هذه الأثناء قد خلا من الناس، وكلهم قد احتلوا أماكنهم في المقاصير ...

فاجتمعنا حول النافذة

وران الصمت لحظات وفجأة أطلّ سؤال جورج ضاحكاً مفاجئاً :

— هل أنت إيطالية ؟

نفيت .

— إذن إسبانية ؟

فتمتم كميل بثقة دون أن ينظر إليّ :

— لا ... إنها من بلاد بعيدة ...

سألت بفضول :

– هل تستطيع أن تحدد من أين أنا ؟

أجاب فوراً .

– لا ... ولكن ... أنت شرقية لاشك

بالرغم مني هززت رأسي بكبرياء ... راضية .

أردف :

– بلى أنت شرقية ... فأسرار الشرق تموج في ناظريك ...

وهتف جورج مستغرباً :

– شرقية ؟

وراح يتأملني من جديد وكأنني حادث غريب في الكون ...

فضحكت من استغرابه وسألته هازئة :

– وهل من الغريب أن أكون شرقية ؟

لكنه لم يسمع سؤالي بل تابع :

– ومن أي بلد في الشرق ؟

التفتّ إلى كميل لأدرس تعابير وجهه ، وأراقب استغرابه هو الآخر ، وإذا به يقول بلهجة عادية جداً :

– أنا أعرف تقريباً من أي بلد أنت ؟

ساءلته عيناي فأجاب :

– بلى ... أظن ... أظن أنك عربية !

وافقت . ففغر جورج فاه دهشاً :

– عربية ؟

نبع العنفوان في كلماتي :

– وما الذي يدهشك في هذا ؟

– يدهشني ؟ يدهشني أنني لم أتصور في حياتي أنني سألتقي بعربية ...

رقص الخبث في لهجتي الهادئة :

– إذن ... أنت لم تطمح في حياتك إلى السعادة ...

أعادت جملتي إلى شخصه طبيعة « الدون جوان » فقال :

– الآن يتبين لي ذلك !

وضحك كميل قائلاً :

– رائع ...! رائع !

تابعت الحديث وسألت باقتناع :

– وأنتما طبعاً فرنسيان ؟

أجاب جورج :

– نعم يا سيدتي أنا فرنسيّ ومن باريز واسمي جورج ب .

نقلت الطرف إلى كميل وقبل أن اسأله قال :

– أنا عشت في باريز ...

أثار فضولي :

– وهل أنت فرنسيّ ؟

تردد قليلاً ثم قال بهدوء :

ـ عشت في باريز ... وأحمل الجنسية الفرنسية ...

عجبت من جوابه وأردت أن أفهم ما وراء كلماته ، ولكن جورج سألني :

ـ ومن أي بلد عربيّ أنت ؟

ورأيت كميل ينظر إليّ وينتظر جوابي باهتمام شديد ، اهتمام أنساه أن يقرّب عود الثقاب الملتهب إلى العروسة المستغيثة بين شفتيه فقلت أروي اهتمامه :

ـ أنا من أجمل بلد في الدنيا ... أنا من جنة صغيرة في الصحراء ... أنا من دمشق !

وقع جوابي عليه وقوع الصاعقة ، ورأيته للحظة يفقد جديته ، ويهتف بتأثر بالغ :

ـ دمشق ؟ هذا غير معقول ؟

ثم تمالك فجأة ، ولملم مبعثرات وقاره ، فعاد من جديد يشعل عود الثقاب ، ويدنيه من اللفافة المتلهفة إلى اللهب ...

وتمتم بهدوء :

ـ غريب ... غريب جداً ...

*

٩

« رغبة جامحة عصفت بروحي واستولت على أفكاري ... يا سليم .

رغبة ملحّة ألهبت نظراتي وتراقصت في أناملي فهفتِ الأنامل إلى اللفافة تصبّ فيها عصبيتها ...

رغبة غريبة لم يثرها في نفسي أي مخلوق عرفته في الماضي ، وتزرعها فجأة في كياني نظراتٌ خضر غريبة في قطار ...

فتنبت الرغبة وتنمو ... وترهقني ...

نعم ...

رغبة جارفة ... رغبة في اكتشاف جميع العوالم المجهولة الخفية الضائعة في متاهات هاتين العينين .

ـ من دمشق ؟ هل معنى هذا أنك ولدت في دمشق ؟

جاء سؤال جورج تكملة حديث محته رغبتي ، فبدا بعيداً ... منسياً . لم أرد فأعاد السؤال :

ـ أنت دمشقية ... أي ولدتِ في دمشق ؟

استكانت رغبتي لحظة وعاد العنفوان يهزج في عينيّ فقلت :

ـ ولدتُ ؟ بل ولدتُ ونشأتُ وترعرعتُ ... و ... وتزوجتُ فيها ...

ذُهلَ :

ـ أنت متزوجة ؟

ضحكت وتراءى لي طيفك يا سليم :

ـ نعم ... تزوجت بعربي في دمشق ... وليت الله يستجيب دعائي ... فأموت في دمشق ...

ـ أنت تحبين بلدك كثيراً ...

هتفت متأثرة :

ـ بلدي ..؟ أجمل بلد في الدنيا ...

كان جورج ينظر إليّ باستغراب :

أما العينان الخضراوان فكانتا مملوءتين بحنين ... حنين حزين ...

ما سرّ هاتين الرائعتين ؟

هل يعرف هذا الرجل دمشق ؟ هل زارها ؟ ماذا ... ماذا يعرف عنها ؟

من هو ... ماذا يفعل ... أين يقيم ؟

إنه متزوج ... فالخاتم في إصبعه اليمنى يبوح بذلك ...

هل له أولاد ؟

وعادت الرغبة تمتصّ أفكاري، وأفكاري تجترّ الأسئلة .

– وهل أنت هنا لفترة طويلة ؟

أجبت جورج بالنفي وحاولت أن أسأل بدوري

– ماذا تعرفان عن دمشق ؟

ارتبك جورج قليلاً ثم اعترف :

– الحقيقة أنني لا اعرف عنها الكثير ... بل لا أعرف عنها شيئاً ...

حضنت النظراتُ الخضر نظراتي ... فشعرت بأنه قريب مني جداً ، هذا الرجل الغريب الذي ابتسم لي، وكأن حب دمشق يجمعنا ... فنشفق معاً على هذا الجاهل الذي لا يعرف

عن دمشق شيئاً .

ثم دارت النظراتُ إلى الصديق ... وبصوتٍ يقطر حنيناً راح كميل يشرح :

– دمشق هي عاصمة سورية ورفيقة التاريخ يا جورج . قصة دمشق رائعة ... هي قصة الناس في أقدم بقعة عرفها الناس ...

تحت كل شارع عربي فيها تجد شارعاً رومانياً ... تحت كل حجر تجد حجراً أقدم ... فقد كانت هذه المدينة نقطة الدائرة في كل حادث ملأ الزمن الغابر ... ليس من فاتح إلا مرّ فيها وهذا يعني أنه لم يبق فاتح فيها ... وبقيت هي !

مرت عليها حضارات وحضارات فتمثلتها ... وأبدعت هي حضارات شعت في أنحاء العالم ... ومع أنها نُهبت مراراً وأحرقت مراراً وعذب أهلها مراراً مراراً، إلا أن شعبها يظل أصيلاً صبوراً صامداً ... وتظلّ هي واحة الضارب في الصحراء ... واحة ... إطارها زمرد، ومآذنها صلوات شكر بيض تتعالى إلى السماء ... وأنهارها عروق تنبض فيها الحياة ... نعم ... دمشق هي ابنة التاريخ البكر ... الشابة دائماً ... وهي – ولعل هذا أكثر ما يهمك يا جورج – مدينة الشموس

المحرقة والعيون ... العيون الواسعة الساحرة ...
والتفتَ إليّ مبتسماً :
ـ أليس كذلك يا سيدتي ؟
لم أردّ ...
كنت أتأمله وقد غدا كياني كلّه أذناً تشتفّ كلماته ...
ـ أليست معلوماتي صحيحة ؟
تدفق فضولي أسئلة شتّى :
ـ أنا لا أعلم كل هذا عن بلدي ! هل زرت دمشق ؟ هل تتحدث العربية ؟ من أين أتيت بهذه المعلومات ..؟
بعد لحظة سكوت قال :
ـ للأسف ... لا أتحدث العربية ! ولم أزر دمشق ولكنني قرأت عنها كثيراً ...
وكأنه شعر بأنه تحدث أكثر مما يجب وبأنه ترك العنان لعاطفته ، فاستدرك متابعاً :
ـ أنا أقرأ كثيراً ... يا سيدتي !

تعجبت !
فالمرء يستطيع أن يتعرف إلى مدينة في كتاب ... يستطيع أن يعجب بها من خلال الأسطر ...
ولكن ...

أن يحبها وأن يملأ مجرد ذكرها عينيه بالحنين، فهذا أمر غير عاديّ ...

وعلّق جورج :

— ... يجب أن نزور دمشق ... سنزورك يا سيدتي في دمشق

واستدرك :

— ولكن ... نحن حتى الآن لم نتشرف بمعرفة اسمك .

— اسمي رشا !

— رشا ؟ اسم رائع ... ما معناه ؟

— معناه غزالة !

فقال باسماً :

— غزالة ... على غزالة ...

ثم عاد يسأل :

— وهل هذه أول مرة تزورين فيها فرنسا ؟

— نعم

فانهمرت أسئلة جورج الفضولية عليّ :

— وهل أعجبتك ؟

— لم ارَ منها سوى مرسيليا ...

— وباريز ؟

— أنا في طريقي إليها ...

– وهل زوجك ينتظرك في باريز ؟

ضحكت من فضوله ...

وشعر بثقل السؤال فاعتذر :

– عفواً ... أنا فضوليّ جداً ... في بعض الأحيان

ابتسمت متسامحة :

– لا بأس ... زوجي بقي في مرسيليا ... وأنا لي أعمال في باريز

فضحك :

– إذن ... أنت مثلنا ... من أصحاب الأعمال ...

أجبت ممازحة :

– الفرق الوحيد ... أنكما لم تتركا زوجتيكما في مرسيليا ...

وذهلت حين هزّ كميل رأسه قائلاً :

– بلى يا سيدتي ... إنها تزور أهلها هناك !

والتقت نظراتنا ...

وتعانقت ...

فتحدثت العيون ...

ولم يسعني إلا أن أشيح بوجهي ...

واتممت بدوري :

– غريب ... غريب جداً ...

وقال جورج بطفولة :

ـ أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يقدم على الزواج ... حاولت مراراً ... لكنني في كل مرة كنت أجبن في آخر لحظة ... والآن كلما فكرت في الزواج أحاول أن أقنع نفسي بأن الأوان قد فات !

كانت كلماته تترحلق على رغبتي الجامحة ... الحرّى ! أنه يثرثر كثيراً ... ليته ... ليته يحدثني عن صديقه ... ليته ... ليته ...!

وانسابت جملته الأخيرة تروي أمنيتي :

ـ اتعلمين أن صديقي كميل متزوج منذ ثلاث عشرة سنة !

التفتّ إلى كميل وسألته بهدوء :

ـ هل لك أطفال ؟

ـ ابنة وحيدة في العاشرة من عمرها وقد تركتها مع أمها ... في مرسيليا ...

تمتمت بحنان ...

ـ ربنا يحفظها لك ...

وامتلأت عيناي بعطف ...

فخيّل إليّ أن سحابة خاطفة تمرّ على جبهته ...

وراح يتأملني بسكون .
وكنت ألمح في أغوار عينيه شيئاً من الحزن
تمنيت أن أكون معه وحيدين ...
فيحدثني ... ويحدثني ... ويحدثني ...
وددت لو أستطيع أن أجد ولو منفذاً صغيراً إلى نفسه المرهقة الثائرة ... وإلى عاطفته المكبوتة !
وكانت ثرثرة جورج تتبعثر حولنا ...
فتطوّقنا ...
وتقصّر المدى بين روحينا .
ـ هل فتيات دمشق كلّهنّ جميلات ؟ ليتني أذهب إلى هناك ... هل ... هل لك أخت عازبة ؟ لا تخشي ... قد أقدم على الزواج في يوم من الأيام

والتفتّ إلى كميل ... وابتسمنا !
وتابع جورج :
ـ هل تعتقدين أن فتاة عربية ترضى أن تتزوجني ؟ هل ... هل ...
وكأن كميل خشي أن تضمّ وسط هذا الحديث السطحي روحُه روحي ... فحاول الهروب ...
وسأل :

ـ ألم تتعبا من الوقوف ؟
وحين أجبناه بالنفي قال :
ـ أما أنا فقد تعبت ... سأدخل المقصورة ، فمعذرة

وانزعجت !

١٠

« قد تستغرب يا سليم ان أعترف إليك بأنني انزعجت ! كان انزعاجي في الماضي ينحصر كله في دمعة تسحقها جفوني ...

أما في هذه اللحظة فقد شعرت بشيء يشبه التحدي . كنت واثقة من أنه لم يتعب ...

لماذا إذن يحاول أن يغلّف تصرفاته باللامبالاة ؟

لماذا يريد أن يبرهنَ لي أنه اقوى من أن يهتمّ بامرأة ؟

إنه رجل جديّ لاشك ... رجل ما تعوّد أن يلهو في

أوقات فراغه ...
ولكن هذا لا يبرر تصرفَه !
هل يظنني لهواً ؟ هل يظنّ أنني قضيت أية لحظة من حياتي في اللهو ؟
لماذا ؟
لماذا يخفي ما تبوح به عيناه ؟
لماذا ؟
لماذا يريد أن يشعرَني بأنه جدّيّ ... لماذا ؟
هل هو يهرب مني ؟
وضعتُ بين الأسئلة المرهقة ... وضجّ رأسي ... واحترت ..
فحاولت أن أقتل قلقي بالإصغاء إلى جورج .
ـ أنت طبعاً متزوجة منذ فترة قصيرة ... أي أنك عروس !
ضحكت هازئة :
ـ نعم ... متزوجة منذ عشر سنوات
صعق :
ـ لا ... هذا غير ممكن ...! كم عمرك الآن ...؟ أنت شابة
ـ خمسة وعشرون ...

نطقت بهاتين الكلمتين وأنا التفت ناحية المقصورة ، لألمح من خلال الزجاج كميل يتأملني بصمت ...

وما إن شعر بأنني التفتّ إليه حتى حوّل نظراته ليصبّها في كتاب يُنّ بين يديه !

— هذه جريمة ... تزوجت وأنت في الخامسة عشرة ؟ هذه جريمة والله !

ابتسمت لكلمات جورج ، ولم أُردّ !

وماذا أقول ؟

هل أقول له : إنّ الفتيات في بلدي إذا تعدين سن العشرين دون زواج حكم عليهن بالإعدام ؟ هل أقول له : إنّ المجتمع في بلدي يدين الفتاة القاطعة سنّ الزواج ، لأنه يحوك القصص حول حياتها ... ويثقل كاهلها بالافتراضات ، ويلوث سمعتها بالأسئلة . هل أقول له : إنّ الأهل يضايقون فتاتهم التي ترفض الزواج ، لأنهم يخافون عليها من أن تصبح من « الكاسدات » ؟

لا ... لم أُردّ !

ولكنني اغتنمت هذه الفرصة ، وسألت :

— ولماذا تستغرب ؟ هذا صديقك قد تزوّج منذ ثلاث عشرة سنة !

— نعم ! ثلاث عشرة سنة أي تزوج في السادسة والعشرين

وهذا معقول جداً !

تسع وثلاثون سنة !

لم يخطيء حدسي ...

تسع وثلاثون سنة !

وأردت أن اعرف المزيد، فعدت أسأل

– وهل تعرفه أنت منذ ذلك الوقت ؟

– لا ... أنا أعرفه منذ ثماني سنوات تقريباً ... وقد جمع العمل ما بيننا ... فأنا محامي الشركة التي يرأسها هو

– أية شركة ؟

– إن كميل مهندس ... ويرأس شركة كبيرة لصنع الزجاج .

سكتّ ...

واشعلت لفافة ... وأسندت ظهري إلى النافذة، وارتفعت الغمامة الرمادية تسدل جفنيّ ... وتراءت لي بين الجفنين صورة مهندس في التاسعة والثلاثين ... أخضر العينين ... شامخ الأنف ... فشعرت بحاجة ملحة إلى التحدث إليه ... حاولت أن أتمالك، وسألت جورج بكسل :

– هل تعبتَ من الوقوف ؟

– كلا ... هل تعبتِ أنتِ ؟

ـ ابتدأتُ أتعب ...
ـ هناك في المقصورة مكان ... فتفضلي ...
ومرت سيدة أنيقة فغمز بعينه، وقال ضاحكاً :
ـ أما أنا فسوف أقوم بجولة في الممرات !
ابتسمتُ ...
ومع أن لهفتي كانت عاصفة ... إلا أنني خطوت بكسل ... نحو المقصورة ...

١١

ارتفعت النظرات الحالمة من على الكتاب ، وزغردت لإطلالتي ...

ولكن اللهجة الساخرة جاءت تكذب النظرات :

— وأخيراً ... لقد تعبتما ! أين جورج ؟ سأعطيه مكاني .

رمقته بمكر وهدوء ... وتحدثت نظرتي :

« لا حاجة إلى كل هذه التمثيليات ... اعفني من هذه اللامبالاة المصطنعة ... »

وفهم الحديث الصامت لكنه تجاهله وسأل :

– أين جورج ؟

قلت بثبات :

– جورج لم يتعب ... وأنا أيضاً لم أتعب ...

رفع حاجبه فتابعت :

– ولكنني أردت التحدث إليك ...

رماني بنظرة فاحصة مستغربة ،وكأنه لم يتعود هذه الصراحة من امرأة ...

ولكن نظرته لم تدم إلا ثواني، إذ عاد فوراً إلى سخريته وغمغم :

– ولكن الحديث مع جورج لذيذ ... ألم يتبين لك ذلك ؟

تشربت لهجتي سخريته فقلت :

– حتماً لذيذ ... لذيذ جداً ... ولكن للأسف هناك بعض الناس الذين لا يحبون الأحاديث اللذيذة !

تجاهل ما وراء كلماتي، وقال :

– إن حديثَ جورج يعجب النساء إجمالاً ...

قاطعتُه :

– إجمالاً نعم ! وحين يقال إجمالاً، فهذا يعني أن هناك حالات خاصة تشذ عن القاعدة ! وربما تعتبر

غروراً آن أعترف لك بأنني أشذّ عن القاعدة !
كان يتأملني بصمت ... وكأنه يريد أن تساعده تعابير وجهي على استيعاب ما أقول ...
وبعد لحظة تمتم :
– غريب ... غريب جداً ...!
ثم ابتسم بتسلية :
– إذن تريدين التحدث إليّ ؟
قلت ساخرة :
– هكذا يبدو ...
فسأل بتحدٍ :
– ولماذا ؟
غلب المزاح لساني فأجبت فوراً :
– لأنك لا تتحدّث كثيراً ...
غرق في الضحك :
– رائعة ... أجوبتك السريعة اللاذعة رائعة !
لم أمنح ملاحظته انتباهاً بل تابعت بجد :
– أنا أيضاً لا أتحدث كثيراً ... ليس من عادتي أن أتحدث كثيراً ... ولكنّ شيئاً في شخصك يثير فيّ الفضول ... مع أنني بطبيعتي لست فضولية ...
كان يرنو إليّ ...

ولكنني شعرت بأنه لا ينتبه لكلماتي ... بل كان يتأمل بعمق هذه المرأة الغريبة التي كان يدهشه وجودها – لسبب أجهله – إلى جانبه في القطار ...

كانت نظراته تطل من عالم بعيد ... بعيد ... وكنت أحسّ بأن هذه النظرات تشدني إلى هذا العالم المجهول الذي يعيش في نفسه هو !

وتبخترت روحي على النظرات ...

ولكنني أردت أن أستفسر عن هذا العالم قبل أن أضيع في غياهبه ، فسألت ببراءة :

– ما الذي يدهشك في شخصي ؟

ابتسم ، فاستدركت :

– عفواً ... أنا أعطي نفسي قيمة كبيرة إذ أقول : « يدهشك » ... ولكن ... يبدو لي من كلامك أنك تستغرب وجودي هنا ... لماذا ؟

كان ينصت إليّ بهدوء ... ثم أومأ قائلاً :

– يدهشني ... نعم يا سيدتي يدهشني ... يدهشني كثيراً ... وقيمة وجودك هنا أكبر مما تتصورين ...

وسرحت نظراته في البعيد ...

عجبت ...

وفاض فضولي ... وفي أعماقي شعرت بشيء

جميل ... شيء يشبه السعادة ...

وتمشى السؤال على ثغري ... متردداً ... وجلاً :

– لماذا ؟... الأنني عربية ؟

وانتظرت جوابه ...

لم يبتسم ... بل هزّ رأسه وكأنه يتحدث الى نفسه ، وأشعل لفافة وسحب نفساً طويلاً ... ثم راح يقصّ عليّ بصوت زاده الحزن ثباتاً :

– يا سيدتي ... منذ حوالي الأربعين سنة جاء شاب عربي من دمشق إلى باريز ليدرس الهندسة في جامعة من جامعاتها ... وبعد بضعة أشهر من وجوده في باريز شاءت الصدف أن تجمعه بفتاة شقراء جميلة أحبها حب العبادة ، فبادلته هذا الحب ، وتواعدا على الزواج ... وطبعاً عارض أهله ، وثارت أسرته في دمشق إلا أنه لم يأبه ، فقد كان لا يستطيع أن يرى الدنيا إلا في عينيّ حبيبته الخضراوين ... وتزوّج بالفتاة على أن يعود بها ، بعد إتمام دراسته الى بلاده ... فيعرفها إلى أهله ويقنعهم بواجب قبولها كفرد من أفراد الاسرة ... فيرضخون للأمر الواقع وتعود الأمور إلى مجاريها ... ولكن الحظ السيّء كان للإثنين بالمرصاد فقد توفي هذا الرجل بعد زواجه ببضعة اشهر تاركاً شابة يانعة لا تعيش إلا لذكراه

وكل هدفها في الحياة أن تجعل من وحيدها الذي لم يعرف أباه ، رجلاً يكمل الطريق التي رسمها الراحل ...

وتوقف عن الكلام ... وساد السكون ...

لم أشأ أن أخدش صمته ... أو أن أقطع سلسلة أفكاره ... وانتظرت أن أسمع النهاية ...

وبقيت اتأمله وعيناي مزيج من الرهبة والحنين والتساؤل ...

ابتسم بحزن ... وسحب نفساً أخيراً من لفافته المحتضرة وتمتم :

— هذا الرجل العربي يا سيدتي ... الذي كان يدعى كمال ... هذا الرجل الذي لم أره في حياتي ... هو أبي ! ذهلتُ ...

وراحت ملايين الأفكار تغلي في رأسي ...

اذن ... اذن ...

ولكنه لم يدعني حائرة بين الأسئلة ... بل شرح :

— نعم ... نعم إن دمائي عربية ... ولكنني ولدت هنا ، وترعرعت في هذه البلاد ... فأحببتها وأحبتني ... وأنا الآن أعتبرها وطني الثاني ...

ثم شردت نظراته ... وتمهّلت في عينيه سحابة صيف ...

وجاءني صوته من عالم الأحلام مغمساً بالحنين :

– ولكن ... ولكنني عشت ... وفي نفسي حنين مضنٍ إلى البلادالعربية ... وإلى دمشق خاصة ... كنت أحلم في طفولتي ... أنني سأعود إلى بلادي الأصلية ... و ... وأتزوج باحدى فتياتها ... وأقضي فيها بقية أيامي ... وكانت عروس أحلامي حنطية اللون تنصبّ على كتفيها شلالات شعرها العاتم وتموج أسرار الشرق في عينيها الزيتيتين ...

احمرت وجنتاي

فطوقتني نظراتُه الحنونة ... ثم عاد إلى لهجته الساخرة المشاكسة فقال :

– ألا ترين أنّ من الغريب جداً ... أن تكون عروس أحلامي ... وصديقة طفولتي وشبابي بشكلك تماماً ؟ وأغرب من هذا ... أنك عربيّة ... ومن دمشق !... غريب ... غريب جداً ...!

لم أدرِ ما أقول ...

فأشعلت لفافة وسحبت نفساً طويلاً ... ثم سألت بلهجة حاولت ان اجعلها هادئة :

– ولماذا لا تحمل اسماً عربياً ؟

– اسمتني أمي « كمال » ... ولكن سرعان ما انقلب

اسمي إلى كميل وهو اسم شائع في فرنسا .

دندنت بصوت مجرد :

– كميل ... كميل

أردتُ أن أسمع وقع اسمه وأدرسه ،

فقاطعني :

– أرجوك ... منك وحدك أحب أن أسمع اسمي الحقيقيّ ...

ارتبكت ولأخفي ارتباكي سألته :

– ولماذا لم تعد إلى البلاد العربية ؟ إلى دمشق ؟

– يا سيدتي ... « ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... » والحياة تجرف الإنسان بتيارها ... يعتقد المرء دائماً أن أمنياته ستتحقق في المستقبل ... وتمرّ الأيام ويأتي المستقبل فيجد أنه مغروس في حياة يومية لا يستطيع أن يقتلع نفسه منها . المشاكل ... المسؤوليات ... الارتباطات ... كل هذه الأشياء تكوّن جذور الإنسان ... وهكذا ... هكذا كانت حياتي !.. أما الآن ... الآن لم يعد بالإمكان أن أهدم كل ما بنيته في التسع والثلاثين سنة الماضية ...

وتلاشت نظراته مع دخان لفافته ...

فأسندت رأسي إلى ظهر مقعدي ... وأغمضت جفنيّ

على حلم تجسّم في عينين خضراوين ...
وساد السكون
وفجأة ... ومع هدير القطار المرتفع ... سمعت الصوت الثابت يسأل :
– كم ليلة ستمكثين في باريز ؟
التفتّ إليه ...
فسبحت نظراتي في بحيرتيْ رجاء صاف ... وشعرت فجأة بحزن وبأسف ...
فتمتمت وأنا أشيح بوجهي ... وأهدل أهدابي :
– فقط ... ليلة واحدة ...

*

القسم الثاني

١

« ــ ليلة واحدة !

ردّدها باستسلام بعد صمت ثقيل خيمّ علينا لحظات ... وتابع :

ــ ليلة واحدة ... أي أنني في الغد سوف أتساءل إذا كنتُ قد قابلتك فعلاً في القطار ... أم عبرتِ في حلم من أحلامي ...

ومع أن لهجته كانت ضاحكة إلا أنني أحسست بأسف يغلّف الصوت العميق ...

لم أقل شيئاً فأردف مبتسماً :

– وطبعاً سيكون جوابي أنني قابلتك في المنام ... وساقتنع بهذا الجواب ...

ضحكتُ

فقال بلهجة عادية جداً :

– لا تعجبي من كلامي، ولا تضحكي منه يا سيدتي ... إنه يبدو مزاحاً ولكنه حقيقة ! أنت لست غريبة عني ... فقد قابلتك مراراً قبل الآن في الأحلام ... ومع أن مخيلتي عجزت عن تصويرك على الوجه الأحسن ... إلا أنني أعرفك جيداً ...

قابلني مراراً ...

يعرفني جيداً ... يعرفني جيداً ...

وأنا ؟

أنا ايضاً، يا سليم، خُيِّل إليّ أنني أعرف هذا الشخص منذ زمن بعيد ... بعيد ...

وخفت أن يظهر شعوري في تعابير وجهي، فقلتُ أكذّب نفسي :

– أنا لم أحلم في حياتي ...

نظر إليّ مستغرباً :

– إذن ... فقد حصلتِ على كل شيء تمنّيتِهِ ؟

ضحكت بسخرية :

– على العكس ... لم أنل شيئاً ...

واستدركت :

– ولكنّ الأصح هو أن أقول: إنني لم أتمنّ شيئاً ...

حدقني بصمت ... فشعرت بحاجة إلى التحدث عن نفسي ...

نفسي التي أغلقتها على الدنيا ... وعلى نفسي ..!

لأول مرة في حياتي، يا سليم، شعرت بأنني أستطيع أن أكشف أعماقي لإنسان ...

كان صوتي حزيناً وأنا أقول :

– كنت أطفيء كلّ حلم يتلألأ في عينيّ ...

تعجّب :

– ولكنّ الأحلام تزيّن الواقع ... و ...

قاطعتُه :

– وأحياناً تحطّم الواقع ...

لم يقل شيئاً ... ولكن الاهتمام سيطر على ملامحه ... وذابت نظراته الثابتة في نغمة عطف ناعمة ... تمايلت على وجهي .

فشعرت بأن روحه المعذبة تحضن روحي !

روحه المعذبة !

لماذا أحسست منذ البداية بأن روحه معذبة ؟ الأنني فهمت انه يخنق عاطفة تتأجّج في صدره، ليبدو بمظهر الرجل القاسي ؟

الأنني أعلم أن الإنسان الذي يكبت عواطفه، ويترك العقل يتحكم في حياته، ينجح ظاهرياً، ولكنه يتألم من الفراغ في أعماقه ؟

لست أدري ...

وسمعته يردّد وكأنه يعترف بحقيقة مؤلمة :

— بلى ... الأحلام أحياناً محطمّة !

ابتسمت ...

ودون أن أفهم لماذا ... وكيف ... سمعتُ صوتي يتحدث عني :

— تزوجت وأنا في الخامسة عشرة ولم أكن أنا التي أرغب في الزواج ... فدمّر الزواج أحلام طفولتي البريئة ... وحاولت أن أقنع نفسي بأن زواجي هو طموح حياتي ... وهدفها ... وحلمها ... لذلك كنت لا أسمح لنفسي بالضياع في الأحلام ... كنت أخنق أحلامي بأهدابي ... خوفاً من أن يخترق بريقُها ظلامَ استسلامي للواقع ... فيمزقه ... ويعذبني ...

سكت قليلاً ... ثم سأل :

– وهل كنتِ سعيدة ؟

سؤال بسيط طبيعيّ أطلّ على تفكيري، يا سليم، فبدا صعباً غريباً مجهولاً !

هل كنتُ سعيدة ؟

سؤال لم أفكر في جوابه في يوم من الأيام !

هل كنت سعيدة ؟

سؤال جعلني في أقلّ من لحظة أستعرض حياتي الماضية كلها ... فلاحت حياتي كشجرة لم تعش إلا في فصل الخريف ...

وكانت أيامي أوراقاً ناشفة صفراً تتساقط واحدة تلو الأخرى ... دون شمس تدفئها ودون عاصفة تسحقها ...

كانت حياتي عادية ... رتيبة ... فارغة ...

« هل كنتُ سعيدة » ؟

قلت بلا مبالاة :

– لم أكن شقية !

– غريب

– ما وجه الغرابة ؟

– أننا نتشابه !

استجوبتْه نظراتي فضحكَ وقال :

– أنا ايضاً يا سيدتي لم أكن شقياً !

ثم شرح بسخرية أطفأ الاستسلام حدتها :

– سيدتي ... إن أكثر الأجوبة تعبيراً عن التعس هو : « لم أكن شقياً » ... ليتني كنت شقياً لكانت حياتي أقل تعساً ... لكان لحياتي على الأقل معنىً ... لكان لها طعم ... لكان لها نكهة ...

وددت لو أعرف الكثير عن حياته العاطفية ... حاولت أن أستفسر فقال قبل أن أتكلّم ... :

– لا ... لم أكن شقياً ! وكيف يكون شقياً من نجح في حياته العملية ؟

وانفعلت لهجته :

– ولكن السعادة الحقيقية تكمن في الأعماق يا سيدتي ... السعادة الحقيقية تنبع من الداخل ... من الداخل ... ما قيمة النجاح الخارجي ... إذا كان الصقيع يكسو عوالم النفس ؟

حاولت أن أتكلم لكنه وضع حداً لهذا الموضوع بسؤاله :

– هل لك أطفال ؟

– لا ... للأسف لا ! والحقيقة هي أنني ذاهبة إلى باريز لأن لديّ موعداً مع الطبيب الاختصاصي غداً ...

وأحنيت رأسي وتمتمت بحياء :

ـ كنت أتمنى أن يكون لي طفل ...

وأردت أن أشعل لفافتي فرفعت أهدابي ولمحت من خلال الزجاج جورج يتحدث إلى سيدة !

ابتسمت :

ـ هذا جورج ...

فقال كمال :

ـ ربما تعب ... سأعطيه مكاني ...

تضايقت .

ولكن جورج كان منهمكاً في حديثه مع السيدة الأنيقة ، وبذلك وجدت المجال الكافي لكي أسأل بشيء من التحدي :

ـ لماذا تحاول أن تصبغ كل تصرفاتك باللامبالاة ؟

التفتَ إليّ مستنكراً كلامي ... لكنه استسلم لنظراتي الواثقة فابتسم قائلاً :

ـ لن أخفي عليك شيئاً ... لقد آمنت وتعلمت أن المرء إذا تقبّل كل ما يعترض طريقه العاطفية بلامبالاة ... يكون قوياً

ـ ولماذا تريد دائماً أن تكون قوياً ؟

نظر إليّ طويلاً ... ثم قال :

– في الماضي يا سيدتي كان يجب أن أكون قوياً ... كنت أضطرّ إلى تحطيم نفسي ... لأبني على أشلائها قوتي ... أما الآن ... فأنا لا استطيع أن أهدم كل ما بنيت في تسع وثلاثين سنة !

وأشعل لفافته ... وضاعت نظراته في الدخان ... وتراقصت كلماته في الغلالة الرمادية :

– بلى ... الآن ... لا أستطيع أن أهدم كل ما بنيت في تسع وثلاثين سنة !

لم أفهم تماماً ما وراء كلماته ...

وهممت أن اسأله ولكن جورج دخل في تلك اللحظة ، فابتدرته ضاحكة :

– هل تعبت ؟

وقبل ان يجيب وخوفاً من أن يعطيه كمال مكانه استبقت الحوادث فوقفت وقلت :

– على كل حال نحن الاثنان تعبنا من الجلوس

فاعترض جورج :

– أنا لا اودّ الجلوس ... فلنخرج جميعاً الى الممر ...

والتفتّ إلى كمال ببراءة خبيثة ... فرأيته ينظر اليّ بشيء من السرور والتسلية ، وقد فهم اللعبة ، وقال بلهجة ضاحكة ومهذبة جداً ولو أنها لا تخلو من السخرية :

ـ نحن تحت أمرك طبعاً ... ولكن يا سيدتي ... أنا لم أتعب ... وهل من الممكن أن يتعب المرء ... في أية حال من الأحوال إذا كان إلى جانبك ؟

٢

« — كم الساعة الآن ؟

وجهت سؤالي إلى الاثنين، وأنا أنظر من النافذة إلى سيول الأمطار ...

وعلى الضوء الشاحب المتسرب من المقاصير إلى الممر استطاع جورج أن يرى ساعته ويجيب :

— العاشرة والنصف ... أي سنصل إلى باريز بعد عشرين دقيقة !

واستطرد :

– هل ينتظرك أحد في باريز ؟

أجبته :

– لا أظن !

وبالرغم مني التفتّ إلى كمال فلمحت بريقاً لمع واختفى في عينيه ... وأومأ بسكون ... ففهمت أنه مثلي يتيم لا ينتظره أحد !

وابتسم ثم قال وكأنه يكمل جملة بدأتها عيناه :

– ... أما جورج فإنه يجد دائماً أحداً في انتظاره ...

ووافق جورج مستسلماً ، فتابع كمال :

– من ينتظرك الليلة ؟

– اعتقد جاكلين ...

هتف كمال وقد بدا عليه السرور :

– آه ... العزيزة جاكلين ... فتاة طيبة لم أرها منذ زمن بعيد ... أنا مسرور لأنها هي

لماذا تضايقت ؟

لماذا شعرت بجسدي ينكمش ... ويصغر ؟

أنا لا أغار ...

فكم وكم من مرة يا سليم رأيتك تتحدث إلى أحداهن ... أو تخلو بإحداهن ... كم من مرة حدثتني ، أنا ، عن إحداهن ؟ لا ... أنا لا أغار ...

فلماذا تضايقت ؟

واقترب كمال من النافذة ونظر إلى الخارج، وقال ممازحاً :

– أنظر يا جورج ... الطقس رديء جداً ... ولا أعتقد أنها ستأتي ...

فنطق جورج ببراءة تامة :

– ولكنها تحبني !

ضحكت من سذاجته، فقال كمال :

– أتعلمين أن جورج هو العاشق الأبدي ؟

أجبتُ فوراً :

– نعم ... العاشق الأبدي الذي لا يحبّ !

ذهل جورج :

– أنا لا أحبّ ؟

– آسفة أن يكون هذا رأيي

فقاطع كمال :

– ولكنه يحب دائماً ...

ابتسمتُ :

– يحبّ ؟ لا ! إنه لا يحب ! ليس الإعجاب حباً ... ليست الرغبة حباً ... ليس الركض وراء السيدات حباً ! ثم الحب قدرة وطاقة ...

الحب لا يقاس بعدد التجارب ... هناك من لم يعيشوا أية تجربة حب ولكنهم يملكون الطاقة والقدرة على الحب !

وسأل جورج :

– إذا كنت أنا لا أحب ... فمن يحب إذن ؟

تراءى لي كمال دون أن التفت إليه فقلت شارحة :

– بعض الأشخاص الذين لا يتحدثون عن العاطفة إطلاقاً ... بل يفنون حياتهم في العمل والوقار ...

هتف جورج مستغرباً :

– أي برأيك كميل هو الذي يستطيع أن يحب ؟

– يستطيع ... نعم ! وهذا لا يعني أنه أحب أو أنه سيحب. إنه يستطيع أن يحبّ ... يملك القدرة ... ولكنه قد لا يحبّ ...

والتفتُّ إلى كمال

– اعذرني إن أعطيت رأيي بشخصك ...

ابتسم ، فالحّ جورج :

– وما الفرق بيننا ؟

تلكأ الجواب على شفتيّ فقال كمال :

– أرجوك اشرحي ... يسرني أن أسمع رأيك الصريح ...

استجبت :

ـ هناك بعض الرجال الذين يبنون الأسوار المنيعة حول عاطفتهم ... أو يرفعون السدود العالية أمام تيار شعورهم ... ولكن ... إذا انهارت السدود ... أو تحطمت الأسوار ... فإن عاطفتهم تكون جارفة صادقة عميقة ... لا تقف قوة في وجهها . وهناك بعض الرجال الذين يندفعون فوراً في أية تجربة دون تفكير ... ويرتدون عنها بسرعة ... وهذا ما يجعل تجاربهم مغامرات سطحية ... بسيطة ...

فكّر جورج قليلاً ثم تمتم بلهجة حزينة مضحكة :

ـ قد يكون رأيك صحيحاً ... وكيف يحبّ الرجال عندكم ؟

ـ بلادي ؟ بلادي بلاد الحب والشعر يا سيدي ... بلاد الأساطير الجميلة ... والروايات المدهشة ! إذا أحبّ ابن بلادي ... فإنه يضع نبضات قلبه في قواف ... وينظم من خلجات روحه عقوداً يزيّن بها جيد الحبيبة ... ويجعل من حبه أغنية ترددها النجوم فتتساقط ألحانها أحلاماً ... رجال بلادي يحبون بعقلهم وخيالهم وروحهم إذا أحبوا ... فتعيش الغالية في أبيات شعرهم ... ويعيشون

هم تحت أهدابها ...

هتف جورج :

– أنت شاعرة ...

– بل أنا متفرجة ... عشت دائماً متفرجة أمينة صادقة وبلادي هي التي تلهم ...

– يجب ... يجب أن نزورها ... ولكن أين تقيمين أنت في باريز ؟

– اعتقد أن صديقاً لزوجي في باريز قد حجز لي غرفة في أوتيل « كونتينانتال »

– وهل ينتظرك الآن ؟

ضحكت إذ كان جورج قد طرح عليّ السؤال نفسه منذ لحظات وكأنه تنبّه لذلك فقال :

– عفواً إذا كررتُ سؤالي ... أردت فقط أن أتأكد ...

– جوابي لم يتغير ... هل أكرره ؟ لا أظن !

والتقت نظراتي بنظرات كمال ...

فتلاثمت ... [illegible]

وركضت روحي على النظرات الصافية لتستريح في الواحتين ...

وأعادني من نزهتي صوت جورج الذي هتف :

– انظري ... انظري من النافذة ... وصلنا إلى باريز

ساءلت ساعتي :
ـ الساعة العاشرة وخمسون دقيقة !
حاولت أن أتبين المكان الذي وقف فيه القطار
ولكن عبثاً !
فالمطر الهاطل والظلام المترامي يغلفان كل المناظر .
قلت :
ـ الطقس رديء ... ألا تنقطع الأمطار ؟
ضحك كمال :
ـ السماء تمطر دائماً هنا ... هل نسيت أننا في شهر ديسمبر ؟

ووقفنا ننتظر نزول المسافرين
وغمغم كمال :
ـ أنا جائع ... جائع جداً ...
ودار صوبي :
ـ ستقبلين دعوتنا ... وتتعشين معنا ...
ضحكت من دعوته الواثقة وتمتمت موافقة :
ـ أنا أيضاً جائعة جداً ...
فحمل حقيبتي وقفز من القطار ...
ومدّ يده يساعدني على النزول ...

فطارت إلى يده أناملي ... ولو أن الحركة بدت طبيعية ...

وقفزت من القطار .

تمنيت لو تظل يدي في هذه اليد القوية الحازمة ... لكنني سحبتها برفق ...

ورفعت رأسي لأجد نفسي إلى جانب كمال تحت أمطار باريز ...

٣

« فتاة شقراء ، هربتْ من تحت قبعتها « البحر » السوداء خصلاتٌ ذهبية ... وحضن جسدَهـا ، قمحيّ اللون ... تتفحصني مستغربة .

— جاكلين ! أرأيتما ؟ هاقد جاءت ...

وناداها :

— جاكلين !

فتأودت صوبنا ... ورأيت كمال يخطو إليها بدوره وهو يصافحها :

- العزيزة جاكلين ... كيف حالك ؟
صاح العتاب في عينيها :
ـ آه ... أنت ما زلت تذكر اسمي ؟
ضحك :
ـ طبعاً ! أنا دائماً أذكرك !
فرفعتْ حاجباً وقالت بتكبر :
ـ هناك تطوّر غريب !
وكنت قد اقتربت فقال جورج :
ـ الآنسة جاكلين ... السيدة رشا ...
قلت :
ـ أهلاً وسهلاً
فأجابت :
ـ تشرفنا ...
ونظراتها تتبختر على شكلي، وكأنها تحاول من مظهري أن تكتشف مدى علاقتي بالرجلين .
واقترب جورج من جاكلين وعانقها بصورة طبيعية وتمتم :
ـ أنت رائعة لأنك جئت ... آه كم أحبك ... هيا بنا ...
والتفت يسأل كمال :

– هل نذهب إلى مطعم المحطة ؟

– لا ... سنذهب كالعادة الى مطعم « الزاوية »

– حسناً ... سنلحق بكما فوراً ... يجب فقط أن أرى إدوارد في مطعم المحطة ، وأسلمه هذه الرزمة ..

وأمسك بذراع جاكلين ، وابتعدا .

هزّ كمال رأسه واقترب مني :

– هيا بنا ...

وسرنا معاً بسرعة ورحت أجمجم :

– البرد قارس ... أوف ... برد ... البرد قارس ...

– لا ترددي أن البرد قارس لانك ستقنعين نفسك بهذا ... وستشعرين فعلاً بأنه قارس !

قلت مازحة :

– فعلاً ! المصيبة تخف إذا تناساها الإنسان

ضحك :

– صحيح ! هذا إذا اعتبرنا أن البرد مصيبة ! هذا هو المطعم !

*

خيل اليّ وأنا أدخل المطعم أنني ألج علبة زجاجية لا تصمد أمام العواصف !

كان المكان يغصّ بالناس واقتربت سيدة سمينة يبدو من حركاتها الواثقة أنها صاحبة المكان :

ـ أهلاً وسهلاً ... سيّد كميل ... لم يبق سوى طاولة واحدة ... تفضلوا

وفهمت أن كمال من روّاد المكان ... وتبعنا السيدة ، وجلسنا في الركن الوحيد الخالي . وابتسمت السيدة وقالت وهي تزحف بجسدها بعيداً عنا :

ـ سأرسل المستخدمة فوراً .

فشكرها كمال وسألني :

ـ هل أعجبك المكان ؟

ـ نعم ... جميل ... أعجبتني جدرانه الزجاجية ... يخيل للمرء أنه جالس على الرصيف ... ويعجب كيف لا تصيبه الأمطار وتغرقه ...

ـ أنا أحبّ هذا المكان ... وأنا الآن جائع ...

ـ وأنا أيضاً ...

واقتربت المستخدمة :

ـ هل أنتما وحيدان

ـ لا ... ننتظر أصدقاء ...

– إذن ... سأعود ثانية ...
وابتعدت فسألني :
– أما زلت تشعرين بالبرد ؟
– لا ... المكان دافيء ...
– هل تودين خلع معطفك ؟
– الآن ؟ لا ... شكراً !
ضحك :
– أنت جبانة ... تخافين من البرد ...
– بلادي دافئة سيدي ...

وكان جورج وشقراؤه قد وصلا ... فاتخذا مقعديهما حول الطاولة ، واقتربت المستخدمة من جديد فطلبنا العشاء .

وكنت أودّ أن أتحدث في الهاتف فاعتذرت من الجالسين وابتعدت .

واتصلتُ بفندقي وتأكدت من أن صديقك، يا سليم، قد حجز غرفة من أجلي .

ثم تأملت نفسي في مرآة قبالتي ، وخلعت معطفي الأسود ورميت نظرة خاطفة إلى قميصي الصوفية البيضاء وتنورتي السوداء الضيقة وأعدت خصلات شعري الهاربة

من الربطة إلى أمكنتها .

وفجأة ...

رأيته في المرآة ورائي ... يظللني بقامته الفارعة فجمدت نظراتي ولكن سرعان ما ابتسمت فقال :

ـ جئت كي أرى لماذا تأخرتِ ؟

ـ كان الخط مشغولاً فترة طويلة ...

ـ هيا بنا ... لقد حضر الطعام .

وحمل معطفي ، فعدنا معاً إلى الطاولة ... عدنا وفي نفسي صدى شعور جميل بأن هناك إنساناً يهتم بي ... بأن هناك إنساناً ... يتحمل مسؤوليتي .

كانت نظرات الشقراء الفضولية الفاحصة تسليني ... كانت تمتد سطوراً ما بيننا ... وكنت أقرؤها بسهولة على صفحات الدخان المتصاعد :

« من هي هذه العربية التي جاءت إلى هنا ... من هي هذه المرأة السمراء التي يهتم بها كميل وهو الذي لم يعر التفاتة إلى امرأة من قبل ؟ »

ويبدو أن هذا الشعور قد جرح أنوثتها ، فمالت نحو كمال ، وتمتمت بغنج :

ـ أتعلم يا كميل أنني اشتقت إليك كثيراً ؟

أجابها بلطف خبيث :

– هذا شعور متبادل يا عزيزتي ...

فاغتنمت الفرصة وتابعت :

– هل تزورنا غداً ؟

تضايقت !

تضايقت من وقاحتها . هل تريد أن تبرهن لي ، أن تذكرني بأنني عابرة، وأنها هي ستظل تحت السماء التي تحضن حياة كمال ؟ وخفت مما سيقوله ... لكنه أجاب ضاحكاً :

– أنت تعلمين يا عزيزتي أنني مشغول جداً ... وهذا لا يعني أنني غير مشتاق إليك .

عاتبتْه نظراتها ، فتدخل جورج مازحاً :

– ما هذا الكلام يا جاكلين ... أنت تغازلين كميل ... وأنا موجود إلى جانبك ؟

فقالت بدلع :

– أنت تعلم يا حبيبي أن كميل لا يبالي بالنساء إطلاقاً ... فوراً ...

التفت اليّ كمال، وقد احمرت وجنتاه، وارتعشت شفتاه ... وكأنه شعر بأنه مضطر إلى أن يبرّىء لي وحدي نفسه من هذه التهمة الكاذبة، فهربتُ من نظرته التي ازهرت

على وجنتيّ، وخبأت عينيّ في صحني، وانهمكت في تقطيع قطعة اللحم .

وحذا الجميع حذوي ... ثم تلوّنت الأحاديث ... وبينما كنت شاردة في تأمل الأمطار التي كانت تضرب زجاج النافذة أمامنا ، سألني جورج :

— هل تمطر السماء عندكم ؟

ضحكت من جهله :

— ربما تظن أنني لأول مرة في حياتي أشاهد المطر ؟

تلعثم ، فاردفت قبل أن يتكلم :

— هل تعتقد أن المطر صفة تختص بها سماء فرنسا ؟

وتابعت بلهجة طيبة :

— طبعاً تمطر السماء في بلدي ...

وملأني حنين دافيء، وأنا انطق بهذه الجملة ... حنين إلى سماء بلادنا ... إلى أراضي بلادنا العطشى حيناً ... والمرتوية حيناً ... وإلى شتاء بلادنا

فنغمت :

— نعم ... السماء تمطر عندنا ... ولكنها لا تمطر دوماً ... ففي فصل الشتاء ، نحن نصلي باستمرار ونرفع أيادينا الى السماء ... نسألها ... أن تغمر أيادينا بلآلئها ... نرجوها أن تروي عيوننا بجودها ... نستجديها أن ترحم

العطش في قلوبنا وفي جوف أراضينا ... في بلادي ... نحن مع الأرض ... نشتاق بلوعة إلى المطر ... كما يشتاق المحب إلى الذي يطفيء لهيب قلبه المحترق ! وحين تزورنا الأمطار نهلل فرحاً ، ويلمع الشكر في عيوننا ... ويفيض كتلك الأمطار درراً على الوجوه التي نشفها قلق الانتظار . ما أحلى سماءنا في الشتاء !... نعم يا سيدي السماء تمطر في بلادي ...

كان الجميع ينظرون الي باهتمام ...

أما هو ... فقد كانت عيناه تنهلان كلماتي ...

ودمدم بتأثر :

– رائعة ! رائعة ...

وهز جورج رأسه :

– نعم ... إن السيدة رشا أسطورة ... أكاد ألا أصدق أنني مع امرأة عربية ... بل أكاد ألا أصدق أنك عربية ...

ووافقت الشقراء شارحة :

– أنت تتحدثين الفرنسية بطلاقة ...

فالتفت إليهما كمال :

– إن السيدة رشا عربية مائة في المائة ... هذه الروح الساخرة ... التائهة ... الرومانتية الدافئة ... هذه الروح

المستسلمة تارة ... الثائرة تارة أخرى هي روح عربية دون أدنى ريب ... وأما الشكل ...

فانبرى جورج :

– نعم ... العينان !. العينان هما الدليل الوحيد الذي جعلني أشك في أنك عربية ...

وهنا اقتربت المستخدمة، تسأل :

– هل تريدون قهوة أم « حلوى »؟

فاعتذر جورج قائلاً :

– جاكلين وأنا يجب أن ننسحب إذا سمحتما

وهبّ واقفاً، وقال موجهاً كلامه اليّ :

– أرجو أن تتيح لنا الظروف أن نجتمع ثانية، ونأخذ القهوة معاً ... أنا مسرور جداً لأنني تعرفت إليك ... إلى اللقاء ...

وانسحب وتبعته الشقراء ببلاهة بعد أن ألقت عليّ سلاماً ناشفاً فارغاً، وهتفت لكمال :

– أرجو أن تتذكرني من آن لآن .

أجابها بلطف ساخر :

– سأذكرك دوماً !

وابتعدا .

ابتعدا وكأنهما يعتقدان أن من الطبيعي جداً أن أظلّ

مع كمال ...

فشعرت بانزعاج وبسعادة في آن معاً

إنزعاج ، لأنني شعرت ، لمجرد بقائي وحيدة مع كمال وكأنني أخصه ، بأن شخصيتي تضعف ...

وسعادة ... لأنني كنت أتمنى دائماً أن أشعر بأنني أنثى ... ومن طبيعة الأنثى أن تضعف !

٤

« كنت أودّ أن أظلّ معه وحيدين ولو لحظة ...
وابتسم كلانا لجورج وشقرائه ، وبطبيعة الحال دارت نظراتنا لتتعانق سكرى ... مستسلمة .
وضعنا معاً في عالم غريب ... بعيد ... يبوح الحنان في أنحاء صمته ...
ونبهنا من شرودنا صوت المستخدمة :
— قهوة ؟
فسألني :

ـ هل تأخذين فنجاناً من القهوة ام كأساً من مشروب لذيذ حلو المذاق هو من اختصاص هذا المكان ؟

ترددتُ :

ـ قد ... قد لا أحبّه ...

ـ إذا لم تحبيه ... فاتركيه ...

وافقت مبتسمة ،

فطلب كأسين من الفتاة وعاد يقول لي :

ـ هذه أول مرة-يا سيدتي-يشاركني أحد في تذوق هذا المشروب ... ففي كل مرة آتي إلى هنا أطلب كأساً واحدة ...

ونبض الحنان في عينيه وتهدج صوته :

ـ سيدتي ... أنا لا أستطيع أن أصف لك سعادتي ... شكراً لك لانك أتيت ... لانك عبرت في حياتي ... لأنك جسّمت حلماً كان يعذبني ... ويكوّن فراغاً في وجودي . شكراً لأنك شرحت لي أن هناك شيئاً كان غائباً عن نفسي وكنت لا أفهم معناه الحقيقي ... وهذا الشيء هو السعادة يا سيدتي ...

شعرت بتأثر بالغ ... يفيض في قلبي ... ليترقرق في عينيّ ... ونقمت على الزمن ... الزمن الذي يلهو بحياة الإنسان ... لانه هو وحده القوي !

فقلت بلهجة يائسة :

ـ أما أنا ... فلست أدري إذا كان يجب عليّ أن أشكر القدر أو أن ألعنه

ـ لماذا ؟

ـ لأن مجرد عبورك أنت في حياتي سوف يهدم ...

وتذكرت فوراً ما قال كمال منذ ساعات في القطار ، فبترت جملتي لأسأله :

ـ ارجوك أن تشرح لي لماذا قلت في القطار: إنك لا تستطيع أن تهدم كل ما بنيت ؟ لم أفهم ما أردت ، ومجيء جورج منعني من سؤالك ...

ـ سيدتي ... قلتِ لي في القطار : إنني أريد أن أبدو بمظهر اللامبالي ... لا ... لست لامبالياً ... لست لامبالياً بك ... ولكن ... لكنني حاولت أن أكبت لهفتي إلى البقاء معك ... حاولت أن أقتل شوقي ... إلى شخص عرفته في أحلام شبابي ... أن أقتل حنيني إليه ! قامت حرب في أعماقي ! هل أستجيب لأول مرة في حياتي نداء عاطفتي ، فأهدم كل ما بنيته في تسع وثلاثين سنة ... أم أخنق عاطفتي وأضيّع الفرصة الوحيدة التي أهداها إليّ القدر لمجابهة حلمي ؟

— ولماذا تعتقد أنك ستهدم ؟

— لأنك ، يا سيدتي ، تجسمين حلماً قضيت سنين في إبعاده عن مخيلتي ... دمرتُ نفسي لأقتله ... وعلى أشلائهما بنيت حياتي ... نعم بنيت حياتي واقتنعت بها ... وإذا بك تعبرين ... تعبرين فقط ؟!

رددت بلهجة فارغة :

— نعم أعبر ...

— هذه هي المشكلة ... أنت عابرة ... نيزك في السماء يخترق شعاعه حياة طويلة ... طويلة فيحرقها ...!

وأتت المضيفة بكأسي المشروب وغيّر السائل الأخضر مجرى حديثنا ، ورشفت منه وابتسمت للطعم اللذيذ :

— حقاً إنه حلو المذاق ...

ردّد كالصدى

— نعم ... إنه حلو المذاق ...

ثم سأل :

— وما الذي دفعك أنت إلى محادثتي ؟

ما الذي دفعني إلى محادثته ؟

لم أدرِ ...

شعرت فقط بحاجة إلى التحدث اليه ، وتبعت رغبتي دون أدنى مقاومة أو حساب ...

أجبته بصراحة :

– لست أدري ... ربما لأنني شعرت بأنك – نفسياً – قريب مني جداً ...

وأردفت ماكرة :

– وربما لأنني لا شعورياً أعجبت بشخصيتك !

رفع حاجبيه مستغرباً فسألته :

– هل تستغرب أن تنال إعجاب سيدة ؟

ضحك :

– بصراحة ... نعم ...!

عجبت :

– ولماذا ؟

– لأنني لا أقوم بأية محاولة كي أحظى باهتمام السيدات ... وهذا النوع من الرجال لا يعجب السيدات ...

قلت ممازحة :

– طبعاً ... فأنت جديّ ... وجهم الوجه ... ومقطب ... ومتكبر قليلاً ... وصديقك جورج هو الدون جوان ... الرجل اللسن الذي يغازل ... ويتحدث بلباقة ونعومة ... ويغمز بعينه ... ولكن يا سيدي ألا تعلم بأن بعض السيدات يعجبن بالرجال الجديين ... العابسين

ابتسم :

– سيدتي ... أنا في حياتي لم أتحرش بسيدة ... وذلك لعدة أسباب ... فحين كنت صغيراً كنت اطمح إلى العلم... وكان هدف واحد ينير حياتي وهو إسعاد أمي التي ضحت بشبابها من أجلي ... أردت أن أكافئها بأن أصبح شخصاً عظيماً ... ودرست الهندسة كما أرادت ومن حسن حظي أنني كنت أميل الى الهندسة فنجحت نجاحاً باهراً ... وكان نجاحي يهمني أكثر من معاكسة الفتيات وخصوصاً أنني كنت احلم بالعودة إلى بلادي ... كنت أحلم بفتاة سمراء من بلادي ...

وسكتَ .

– ولماذا لم تعد إلى بلادنا ؟

– نعم ... لماذا لم أعد ؟ للأسف ... في سن التاسعة عشرة اشتركت في الحرب العالمية ... وكنت من فئة الطيارين

توسعت عيناي دهشة ففهم نظرتي المستفهمة المستغربة وشرح :

– لا تسأليني لماذا حاربت ! كان شعوري وأنا أحارب من أجل فرنسا أنني أردّ جميلاً إلى البلاد التي آوتني وحضنت طفولتي ! المهم أنني حاربت . وألمّ بنا حادث مروّع كانت نتيجته أنني اصبت بشلل موقت في

ساقيّ ... وكان لهذا الحادث المؤسف أثره البليغ في نفسي... فقد كنتُ في أوج شبابي حين فقدت شبابي وغرور شبابي ... تألمت كثيراً ... وأصبت بعقدة نفسية ما زالت آثارها ظاهرة حتى الآن ... فأنا مثلاً لا استطيع أن أرى في إعجاب سيدة بي إلا نوعاً من الشفقة !!!

وصمت قليلاً

ـ أما بعد الحرب ... فقد رغبت عن العودة الى البلاد العربية ... بلادي ... كنت أريد أن أعود إليها قوياً جميلاً لا ضعيفاً مشوهاً ... وبقيت في فرنسا وعدت إلى الدراسة والعمل... وأصبحت حياتي كلها دراسة وعملاً... ومع الأيام استطعت أن أمشي ... استطعت بقوة إرادتي أن أردّ الحياة إلى ساقين ميتتين ... فتزوجت من الممرضة التي اعتنت بي أيام إصابتي ... وكانت تحبني ... كانت تعبدني ... تزوجتها أيضاً لاردّ لها الجميل ... فقد أحبتني في فترة كنت أحوج ما فيها إلى حب لا إلى عطف ! أحبتني في فترة كانت فيها الشفقة تجرح رجولتي وتهين كرامتي ... وهكذا يا سيدتي كانت حياتي... كان الواجب يأتي قبل كل شيء ... وكان هدفي دائماً أن أسعد غيري ... أمي ... زوجتي ... ابنتي... أصدقائي ... واقنعت نفسي بأن هذه هي سعادتي ...

وحدجني طويلاً ، وغمغم بحزن :

– الآن ... الآن فقط ... يتبين لي أنني أنا شخصياً ... لم أكن سعيداً في يوم من الأيام

وصمت .

كان الشعور نفسه يختلج في أعماقي ، لكنني لم أقل شيئاً ، بل نظرت إليه ، وتفاهمت عيوننا ... وخشيتُ أن يخونني لساني ... ويبَوح ، فأغريته بالسائل الزمردي اللذيذ ... وتمتمت :

– الساعة الثانية عشرة ... يجب أن أذهب إلى فندقي ...

قال بلهجة مهذبة حازمة :

– سأوصلك ... تفضلي ...

وخرجنا معاً من المطعم !

٥

« الامطار تنهمر بصورة مذهلة ، والسيول تتدفق على جانبي الطريق ...

وقفت مرتعدة ... خائفة ... فنظر إلي كمال وابتسم :

ـ أنت لم تتعودي هذه الامطار الغزيرة ... هيا بنا ...

وامسك ذراعي برفق وكأنني أمانة غالية وأسرع الخطى . مشيت إلى جانبه كطفلة ضائعة تتبع هاديها دون أن تعير التفاتاً إلى أي مقهى من المقاهي الكثيرة التي كانت تزين جانب الرصيف .

وقطعنا مسافة طويلة إلى أن شعرت بأن الأمطار تسربت إلى جسدي ... فوقفت على حافة الرصيف الذي قطعه شارع عريض ، وسألته ببراءة وكأنني أتنبّه فجأة على أننا نسير منذ لحظات :

— لماذا نسير ؟ لماذا لا نوقف أية سيارة « تاكسي » ؟

— يجب أن نصل إلى الرصيف الموازي لهذا الرصيف وهناك نجد سيارات « تاكسي » . سيارات التاكسي هنا يا سيدتي لا تقف في أي مكان ... وكل سيارة تكسي تمضي باتجاه معين ... إذا أردتِ فلندخل إلى هذا المقهى ونطلب سيارة هاتفياً ...

وبالفعل كان هناك مقهى مرتم على الرصيف الواسع . وحين التفتّ إليه خيل اليّ أن هؤلاء الناس الجالسين وراء النوافذ ينتظرون ... كلهم ينتظرون شيئاً مجهولاً ...

وأنا ؟ أنا أيضاً قضيت حياتي انتظاراً . ماذا أنتظر ؟

— لا ... فلنأخذ « تاكسياً » !

— إذن ... يجب أن نقطع الشارع

وهممت أن أركض ...

فانزلقت قدمي وكدت أن أقع بين دواليب سيارة مسرعة لولا أنني سمعت صوته يزمجر :

— رشا ... انتبهي

كانت هذه أول مرة يلفظ فيها اسمي مجرداً ... وكان لوقع هذا النداء على نفسي مفعول السحر ... إذ جمدت فجأة ... وكأن هذا النداء حوّل شخصي إلى تمثال ...

وقبل أن أفكر في أي شيء كان قد شدني بسرعة إلى الوراء ،

فالتفتّ ...

لارتطم بصدره ... واتسمّر بين ذراعيه ... خائفة ضعيفة ... راضية ...

رفعت الوجه إليه ... فتبخرت قطرات الأمطار في لهيب أنفاسنا ...

وجرف الشوق صقيع الشتاء من على جبهتينا ...

وجمدت نظراتنا ... ثم باحت ...

فسال البوح مع الأمطار ... أنيناً على وجنتينا ...

وامتدت أنامله ترفع خصلة شعر أثقلتها المياه ، فارتمت ... لاغبة ... على جبيني ...

وانبعث اسمي تغريداً في ثغره :

— رشا ...

فهتفت من أعماقي :

— كمال !

وانطوت الذراعان عليّ ...
ولولا الأمطار ... لسُمع حفيف وجهينا ...
وبقينا لحظات ضائعين في الهدوء ... حتى ضاع الهدوء في تأوهات نظراتنا ...
ودون كلام أو سؤال ، ابتسمنا متفقيْن ... وعدنا إلى الوراء خطوة لندخل معاً المقهى المرمي على حافة الرصيف .

*

أمام طاولة صغيرة محتمية بعامود كبير جلسنا ... راضيين .
واقتربت المستخدمة ، فالتفت اليّ كمال ، قلت :
– فنجاناً من القهوة التركية
– آسفة لا يوجد
– إذن ... « نسكافة »
وافق كمال :
– وأنا ايضاً !
وابتعدتْ .
وتلفتُّ حولي أراقبُ المكان ، ولاحظت أن الكثيرين

من الرجال ينظرون إليّ ، قلت :

– من الغريب ... أن الرجال هنا أيضاً ينظرون إلى النساء ... ويعيرون انتباههم سيدةً غريبة كما يفعلون في بلادي ...

ابتسم :

– في كل بلاد الدنيا يا سيدتي ... الجمال يلفت النظر !

وصمت قليلاً ليقول بلهجة السؤال : أتعلمين أنك جميلة جداً ؟

وانقلبت ملامحه ، ونبت العطف في قسمات وجهه :

– أتعلمين أنني سعيد جداً ؟

احمرت وجنتاي ،

وامتدت يدي تتحسس المنفضة وتحصر فيها ارتباكي ...

واستطعت أن أتمالك وأن أنظر إلى كمال نظرة معاتبة ...

ظل يتأملني ، ثم اقترب وأسند ذراعيه المكتفتين إلى الطاولة ... وسأل بتأثر كبير :

– سيدتي ... لماذا تستغربين ؟ هل تعتقدين أنني أمزح ؟ لقد كنت جاداً طيلة حياتي ... وأنا الآن جاد ... وهذا ما يرهق تفكيري ... ليتني ... ليتني كنت أمزح !

أنا أيضاً لم أمزح ... ولمْ ألهُ في حياتي وأنت تعلم هذا يا سليم ... أنا أيضاً كنت جادة طيلة أيامي الماضية ...

وفهم تفكيري :

– أنت أيضاً ... لست من النساء اللواتي يتلهين بالحياة ... لذلك ... لا يمكن أن نعتبر اجتماعنا مجرد لهو ... كلها ساعات ... ساعات شاء القدر أن نجتمع فيها... وشاء أن نفترق بعدها . نعم ... فنحن قد لا نلتقي في المستقبل إطلاقاً ... بل لن نلتقي ... ! لكل منا حياته ... نحن للأسف لا نعيش في رواية يكتبها مؤلف ، ويحل مشاكلها بسهولة وينهيها كيفما يشاء ...

وجاءت المستخدمة تحمل النسكافة ووضعت الفنجانين على الطاولة وابتعدت ...

وغمغم وهو يصبّ القهوة في فنجاني :

– نعم ... كلها ساعات ... وأنا الآن سعيد وحزين ...

حاولت أن أقول شيئاً ... أن أشرح عاطفتي لكني لم استطع سوى أن ألقي بهذه الكلمات :

– لننس هذه الساعات ... لننس أننا تلاقينا ...

– أنسى ؟ كيف أنسى ؟ كيف ؟

قالها بلهجة يائسة هادئة ... ثم راح يحدثني عن نفسه

ويعيد على أسماعي ما قاله من قبل :

– سيدتي الغالية ... لقد آمنت طيلة حياتي بمبادىء واحدة ! قتلت عاطفتي أمتّ حنيني ... دست أحلامي ... وأغرقت نفسي في العمل ... عملت ... وعملت ... وعملت ... واعتزمت أن أنجح في عملي ... وبما أنني اقتنعت بأن نفسي لن تسعد أبداً ... فقد قررت على الأقل أن أسعد زوجتي ... لم أخنها طوال ثلاث عشرة سنة ... لم أخنها لأنني اعتقدت أنني مدين لها ... وأن من واجبي أن أردّ لها الجميل ... ومرت الأيام ... واقتنعت بحياتي ... و ... و ... جئتِ انتِ ...

ثم هتف معاتباً نفسه والقدر :

– كيف ؟ كيف تعبرين فقط في حياتي ؟ هل تفهمين خطورة عبورك ؟ مجرد عبورك في حياتي يهدم كل ما بنيت في تسع وثلاثين سنة .

ولم يستطع أنْ يكبت عواطفه فانفجر قائلاً :

– رشا ... ألا يوجد حلّ ؟ ألا يمكن أن نلتقي في المستقبل ؟

تراءى لي طيف زوجة محبة تنتظر كمال وتذكرتك أنت يا سليم ...

لا ...

من المستحيل أن ألتقي بكمال ثانية ...
لكل منا حياته ...
لا ... لا يوجد حلّ !
ترنح الدمع في عيني ...
– أنت قلت: إننا لسنا أبطالاً في رواية يكتبها مؤلف. استسلم لكلماتي ،
وغاصت نظراته في عينيّ ... وأسكر سمعي صوته الثابت العميق :
– رشا ... قد نفترق بعد لحظات ، ولكن تأكدي ... تأكدي من أنني في هذه اللحظة ... أحبك ... أحبك كما لم أحبّ في حياتي ...
وانحنى على الطاولة ...
وانبسطت ذراعاه أمامه
فمددت له يديّ المتشابكتين ... ليشدّ عليهما ويضمهما برفق ...
ولم أستطع أن أتكلم ...
ففي تلك اللحظة ، شعرت بأنني أمسك الحياة كلها بين أناملي ...
شعرت بأن اللحظة تتشرب دمائي ... واختلط معها ...
شعرت بأنني أعيش ...

وأسندت جبهتي المثقلة على يديه أغسل أنامله بدمعي ...

ومرت دقائق ...

وفتّت الحنين الذي كان يغلفني وينبع مني صوتُ المستخدمة :

– هل تريدان شيئاً آخر ...

فرفعت رأسي ...

والتقت نظراتنا الندية ... فسالت لهفة ورجاءً ...

ودون أن التفت إلى المستخدمة التي شعرت بثقل وجودها فابتعدت ، تمتمتُ :

– يجب أن أعود إلى فندقي ...

٦

« وقفت أمام باب الفندق مترددة ... تائهة ...
ونظرت إليه وهو يرفع يدي إلى ثغره ويتمتم :
– كنتِ حلماً ... وستظلين حلماً ...
لم أقل شيئاً ...
لكن تفكيري كان يدور بسرعة ... بسرعة ...
« كنت حلماً »
وهو ؟
ألم يكن هو حلماً ؟ حلماً لم أفهمه في حياتي ؟ حلماً

كان يلوح لي من البعيد ... فتغرقـه دموعي دون أن تسمح لعينيّ بالتمتع بمعانيه ؟

ألم يكن هو مثير عبراتي المجهول ؟

سنفترق الآن !

وسيظل هو أيضاً حلماً ! حلماً توضحت معالمه !

سنفترق !

وتجسمت الكلمة في مخيلتي وشعرت فجأة بفراغ ... وبوحدة موئلة !

فراغ يلفني ... يخيفني ... يثقل عـلى كاهلي ... فراغ ليس كالفراغ الذي عشت فيه طيلة أيامي الماضية ... هو !

هذا الفراغ الآن هو حاجتي إلى بقائه هو !

سنفترق !

وسأمسي وحيدة !

بلى ... لقد قضيت عمري وحيدة ، ولكن وحدتي الآن معناها أنه هو ليس إلى جانبي ...

حزنت ...

حزنت كثيراً يا سليم .

وارتمت نظراتي على يدي الممتثلة في يديه كزنبقة وجدت أخيراً إناءها ...
وراحت تقطف منها آلاف الأسئلة !

سنفترق !
وعادت الكلمة الرهيبة تقرع دماغي ... وتدوي ...
فحاولت أن أخفف من وطأتها بإلقائها على سمعه ؛ وهمست :
ـ سنفترق !
شدّ على يدي ...
فشعرت بنوع من الاطمئنان اليائس ورفعت أهدابي ...
فالتقت نظراتنا ... وجمدت عيوننا في تساؤلها المستجدي ...
وبعد لحظة أرهف ثوانيها صمت الصلاة ... برقت النظرات ... وتحركت الشفاه ... وكأنها تواعدت على الارتعاش معاً ... ونطقنا ... في آن واحد :
ـ لماذا ؟

نعم ... لماذا ؟
لماذا أبتعد عنه الآن ؟ لماذا أتركه الآن ؟ هل أتعبتني

السهرة ؟ أنا التي طالما سامرت النجوم وحيدة ... وسقى ندى الفجر جفافَ وجنتيّ ؟

ليلي ما زال في أوله ... فالساعة لم تبلغ الواحدة بعد ... ما ضرّ لو بقيت معه ساعة أم ساعتين ؟ إنه ليس رجلاً غريباً قابلته صدفة ! لا ... إنه صديق عاش في اللاشعور عندي زمناً طويلاً ... طويلاً ...

لماذا أحرمه واحرم نفسي من لحظات لا يجود بها الزمان إلا مرة واحدة ؟

لماذا اضحي بتلك اللحظات ؟

لماذا ؟

أين الهدف الذي عشت له طيلة حياتي كي أضحي له الآن بسعادة لحظة ؟

أين الأمل الذي ثرت من أجله في ماضيّ كي أرضخ الآن لمشيئة الارادة ؟

أين الحلم الذي زيّنتهُ لي مخيلتي كي امنعها الآن من سكب ألوانها في حقيقة ؟

لماذا ؟

لماذا اضحي بتلك اللحظات ؟

أنا التي عشت خمساً وعشرين سنة دون أن يرقص حلم في سمائي ...

ودون أن يشرق أمل على أيامي ...
ودون أن ينير مستقبلي هدف ؟
نعم ...
لماذا أضحي الآن ؟

ونظرت اليه ...
كان يتأملني ، وابتسامة دامعة تختال في عينيه ...
فهمست بنعومة ... مبتسمة :
ـ نعم ... لماذا ؟ والسهرة ما زالت في أولها ؟
ظل يتأملني ...
ثم نطق بلهجة لطيفة حازمة :
ـ أنا تحت أمرك ...!
برقت عيناي بنور جديد ... ودندنت :
ـ هل تعطيني ربع ساعة ... كي أتسلم مفتاح غرفتي ... و ... واعتني بشكلي قليلاً ؟ ربع ساعة ... هل تنتظرني ؟
فاض العطف في عينيه ...
وتمتم برقة :
ـ سيدتي الغالية ... انتظرتك تسعاً وثلاثين سنة ...
وهنا اقترب بواب الفندق :

– هل مع السيدة حقائب ؟

أشرت إلى الحقيبة الصغيرة ... فحملها وتقدمني إلى الداخل ...

والتفتّ إلى كمال ...

كانت أعوامه التسعة والثلاثون تسيل في نظراته

فابتسمت بحنان دون أن أقول شيئاً ... وتبعت البواب سعيدة ... مزودة بنظرة كمال العطوفة ...

٧

« كانت رسالة صغيرة من صديقك، يا سليم، تنتظرني على الطاولة في غرفتي .

وقرأت فيها .

« سيدتي

أرجو الاّ تكون رحلتك قد أتعبتك، وأتمنى لك ليلة طيبة في باريز . موعدك مع الطبيب ما زال قائماً . سأتصل بك غداً في التاسعة صباحاً . احترامي

المخلص ...

هذه الكلمات التي جئت إلى باريز من أجلها بدت لي تافهة ورميت الرسالة على الطاولة واقتربت من المرآة أستشيرها في شكلي ...

وشعرت بحاجة إلى أن أبدو جميلة ... جميلة جداً ...

ورحت أتحسس وجهي العاري من الزينة وارتمت نظراتي على ثيابي البسيطة ...

ودبّ حماس غريب في كياني ... أمات تعبي ...

فخلعت ملابسي على عجل واندفعت إلى الحمام استقبل على جسدي قطرات المياه المنعشة ...

وفي أقل من دقائق كنت من جديد امام المرآة أتأمل في الثوب الوحيد الذي حملته معي في الحقيبة الصغيرة ، وهو يلفّ جسدي برفق ...

هذا الثوب الزيتيّ الأنيق الذي اشتريته لأنه بلون عينيّ .

وابتسمت ...

لقد أعجب كمال لون عينيّ ... وسيعجبه ثوبي ...

أتذكر هذا الثوب يا سليم ؟

لقد ارتديته مرة واحدة فقط في دمشق ... كان جديداً وأردت أن أفاجئك به . كان ذلك منذ سنة أو أكثر ... وكان هذا الثوب آخر محاولة تدفعني أنوثتي

على القيام بها لاستجلاب اهتمامك ...

لكنك لم تلاحظه في أول الأمر ... لانك لم تستطع في حياتك أن تنظر إليّ كامرأة ...! كنت زوجتك أي قطعة ضرورية متحركة من أثاث البيت !

وهل ينتبه الرجل العائد من عمله إلى شكل أثاث بيته ؟

وحين اقتربت منك وسألتك برقة رأيك في ثوبي ، حدجتني باستغراب ثم قطبت ... وصدمتني بتلك الكلمات :

— من أين لك هذا الثوب ... إنه قبيح ! أنا أكره الأثواب الضيقة لأنها تعطي شكلك طابع الإغراء ... وهذا لا يناسبك . ثم ... هذه الياقة الكبيرة ! إنها تكشف عن جيدك أكثر مما يجب ... لا هذا الثوب ليس من أجلك ! انك مغرية ... وهذا لا يعجبني في زوجتي !

الإغراء !

أنت لم تفهم يا سليم أن المرأة ... اية امرأة تحب في بعض الأحيان أن تكون مغرية ... تحب أن تشعر بتأثير إغرائها على الرجل ... حتى لو كان هذا الرجل زوجها منذ عشر سنوات ...

نعم ... الإغراء ...

إنه من خصائص الأنوثة ... فالمرأة تحقق أنوثتها حين تحسّ بأنها مغرية ...
ولكن أنوثتي تحجرت وأنا معك ... ولم أشعر بها في يوم من الأيام ...

كل هذه الأفكار تمرّ الآن في رأسي يا سليم ولكنني البارحة وأنا أمام المرآة لم أفكر في شيءٍ من هذا ... ففي تلك اللحظة كنت أعيش بلا ماض وبدون مستقبل ... كانت اللحظات الحاضرة تمتص كل تفكيري .

وبعد أن زينت وجهي واعتنيت بتصفيف شعري ساءلت ساعتي وابتسمت ...
لم يستغرق ابتعادي عن كمال سوى ربع ساعة فحملت معطفي ... ونزلت إليه .

كان يذرع أرض الصالة جيئة وذهاباً حين دخلت . والتفتَ ، وأذهلته طلتي ...
فركضت نظراته على ثوبي ... وتمهلت على وجهي لتستريح أخيراً في عينيّ ... فأغمضت أهدابي على الكلمات الصامتة ... ومددت له يدي .

نطق :

– ما أجملك !.. إنّ عينيك زمردتان ... ينعكس بريقهما على الثوب ... فيغرقه . أنت رائعة .

– يسرني أن يعجبك ثوبي ...

– كل شيء فيك يعجبني يا سيدتي

وانحنى يزرع قبلة في راحتي

ثم رفع رأسه ليسأل بهدوء :

– إلى أين تحبين أن نذهب ؟ الساعة قد جاوزت الواحدة بقليل ...

– لست أدري فأنا لا أعرف باريز !

– إذن ... سأريك أجمل ملاهي باريز ... تفضلي ...

٨

« تساءلت وأنا ألج « الليدو » لماذا يركض الناس وراء الأضواء دائماً ؟ لماذا يسجدون للعظمة ؟ ولماذا تستهويهم الأسماء الضخمة ؟

أنت تعلم يا سليم أن لا شيء يبهرني ... حتى إنك قلت لي مراراً :

« أتمنى لو تشهقين مرة لمنظر بديع ... يخيل إلى الذي يراك أنك رأيت كل بلاد العالم ... فلم يعد شيءٌ يدهشك ... »

نعم ... لا شيء يدهشني ... والبارحة فقط فهمت السبب، وهو أن عالمَ نفسي كان دائماً أكبر من العالم الخارجي وأعظم منه .

وجدت الليدو كما صورته لي مخيلتي ... كبيراً ضخماً ... أنيقاً . وذكرتك يا سليم ... ذكرتك لأن هذه الأمكنة المتلألئة تعجبك أنت ...

فعيناك مهما ارتوتا بأنوار خارجية تظلان عطشانتين ... أما عيناي ، فقد أغرقتهما نفسي بدمعها منذ الصغر ...

وأبديت رأيي في المكان لكمال فابتسم قائلاً :

– أنا من رأيك تماماً ... ولكن يجب أن تري هذا الملهى لأنه من أشهر ملاهي باريز ... ويقدم أحلى البرامج . وكل الأجانب الذين يأتون إلى هنا يزورونه ...

وتبعنا الخادم إلى ركن صغير تفصله عن حلبة الرقص طاولة تجمّع حولها عدد كبير من الأمريكيين .

كانت الرقصة الإسبانية التي يتضمنها برنامج العرض تكاد أن تنتهي .

وأتى الخادم بكأسٍ من الويسكي وفنجان من

القهوة ... وأضيئت الأنوار على نهاية المشهد ونظر إليّ كمال قائلاً :

– إذا أردت ، نستطيع أن نغادر فوراً ...

ابتسمت له بلطف :

– لا ... أنا مسرورة ... وسنرى المشهد التالي ريثما تشرب كأسك ... ثم نغادر ...

وأطفئت الأنوار من جديد وسلطت على الحلبة أضواء صفر ... وظهر مشهد يمثل الحصاد ...

زنوج يحصدون القمح وهم يرقصون على أنغام الفولكلور وسيد الأراضي رجل أبيض ... يتنقل شامخ الرأس ، ويصدر أوامره هنا وهناك بحركات معبرة ...

ويبتعد المشهد تدريجياً ليظهر على المسرح بيت صغير ، تجلس وراء نافذته المطلة على الأراضي امرأة رائعة الجمال .

وتقف المرأة والملل باد عليها ، وتفتح النافذة وتغلقها ، ثم تفتحها وهكذا مراراً إلى ان يلوح طيف الزوج الأبيض ، فتشير إليه أن يأتي لكنه يستهتر بندائها ويعود إلى عماله .

ويتحكم اليأس في حركات الزوجة المهملة ، فتدور

على نفسها بعصبية وحزن ... ثم ترتمي على المقعد وتنتظر ..!

وتتغير الأضواء الصفر ... وتسيل أشعة زرق في الغرفة ...

وفجأة يدخل أحد الزنوج ... ربما كان رئيس العمال ، فترتعد الزوجة، وتنتصب واقفة، وبعفوية تمدّ إليه ذراعيها وكأنها كانت تنتظره ...

يرتبك قليلاً ثم تحمله اللهفة إليها ... لكنها تقفز إلى الوراء ... خائفة ...

يعود هو إلى الباب خائباً ... فتلحق به ... وتمنعه من الخروج فيحاول أن يمسك يدها ... فتهرب من جديد ...

وتقوم برقصة يختلط فيها الإغراء بالخوف ... حركاتها تعبر عن رغبة شديدة في الارتماء بين ذراعيه وعن بقايا إرادة تمنعها من خيانة زوجها .

ويتسرب إغراؤها إلى دماء العشيق الذي يفقد ارتباكه ، ويستعيد شيئاً فشيئاً ثقته بنفسه ... فتتزن خطواته ... ويقوم هو الآخر برقصة معبرة ...

وهكذا ... يرقص كل واحد منهما في ناحية ... وتعلو الموسيقى ...

وتتضارب الرقصتان ... وتتنافر الحركات ... إلى

أن تتلاءم خطواتهما اخيراً ... فيتلويان معاً على الأنغام التي أخذت تخفت وتخفت
وكنتيجة محتمة نجد الزوجة بين ذراعي العشيق ...

ابتسمت ، واخذت لفافة قدمها لي كمال ، وهو يسألني بلطف :
– هل أعجبتك الرقصة ؟
– البرنامج جميل ... نعم أعجبتني ... وأنت ؟
رشّني بلمعان عينيه ... وغلفني صوته الثابت العميق :
– ما دمت إلى جانبي ... كل شيء يعجبني ...

وقرعت الطبول فالتفتنا معاً إلى المسرح لنرى أن الزوج قد دخل بيته .
يظلّ مشدوهاً ... ثم يجن غضبه ... فيهجم على العشيق الذي يقف حائراً مذعوراً ...
وتقوم معركة بين الرجلين وتحاول الزوجة ما أمكنها أن تبعد ما بينهما ، فيركلها الزوج بقدمه ... ويحاول قتل العشيق ...
ومع أن الزنجي كان أقوى من الزوج ، إلا أنه اكتفى بأن يدافع عن نفسه وكأنه ، حتى في معركته مع الموت لا

يجرؤ على مهاجمة سيده .

ورشفت قهوتي :

— سيقتله ...

ابتسم :

— طبعاً ... فالسيد يملك دائماً حياة عبيده !

— ولماذا يستسلم العبد ؟

— بعض الناس يتعودون الذل يا سيدتي العزيزة ولا يعرفون أنّ الإنسان يجب أن يولد حراً

وأشعل لفافة جديدة :

— هذا عهد قد ولّى ... أما الآن فالفكر أكبر قوة في الوجود . الفكر وحده يسيّر الناس ... والفكر يجب أن يكون حرّاً .

ورمقني باسماً وأردف :

— أما العيون الساحرة فهي تستعبد الناس، يا سيدتي ! صفّقتْ أهدابي ... فطارت أنظاري من جديد إلى المسرح .

كان الزوج قد طعن العبد طعنة قاتلة ... وتهب الزوجة وتدور تائهة حول الجثة، ثم تدنو من زوجها، وتطلب إليه

أن يقتلها ...

إنها تتكلم بيديها ... بجسدها ... بشعرها المتطاير ... ثم تركع أمامه ...

ولكن الزوج يرفض ...

إنه يحبها ... الآن يدرك أنه يحبها ... وأنه أهملها وينحني ... يريد أن يحضنها ...

لكنه يلمح الجثة فيتذكر خيانتها ويرتد عنها ! ويدور كالمجنون في أنحاء الغرفة ... فتلاحقه ... وتصبح حركاتها كلها استجداء للموت ...

فيندفع خارج الغرفة ...

وتقف هي مستغربة وكأنها لا تصدق أنه تركها ... تناديه ... وتناديه ...

ثم تشفق عليه ... فتنسى عشيقها وتركض وراء زوجها .

أردت أن أطفيء لفافتي في المنفضة ... فغمرت يده يدي ... وتمتم :

— رشا ... عرفت السعادة وأنا معك ... أنا لا يهمني إطلاقاً ان أموت الآن ...

حملت طرفي إلى عينيه ...

وبين العيون ترنحت النظرات ... وتلوّت ... لتنهد اخيراً مستسلمة ... وتذوب في دمعتين لمعتا ...

وهمست بحزن :

– سأموت معك ...

فشدّ على يدي وجرع كأسه دفعة واحدة، وقال

– هيا بنا ... سنذهب إلى كبارية في مونمارتر

٩

« أمرعت ابتسامة راضية على ثغري وأنا أدخل مع كمال علبة الليل الحمراء « حب » .

كان كل شيء فيها أحمر ... الجدران ... المقاعد الستائر ... حتى الأضواء النابعة من الزوايا كانت توزع أشعة حمراً ...

وكانت ألواح من الخشب المبطّن بقماش ناريّ تقسم المكان إلى مقاصير صغيرة تتوسط كلاً منها طاولة مزخرفة وتُزين جدرانها أسلحة قديمة ...

وتصاعدت نظراتي مع الدخان المتلاشي في الفضاء ... حتى هذا الجو الضبابيّ كان متوهجاً ...

غمغمت « بتسلية » :

— إلهي ... نحن في جهنم !

ابتسم :

— هذه جهنم الحديثة ، يا سيدتي ...

وانتقينا مقصورة صغيرة جلسنا فيها ضاحكين .

— ولماذا لم يضعوا رسوماً للشيطان ؟

أجابني ساخراً :

— يا حلوتي ... ما قيمة الرسوم ؟ الشياطين هنا يتحركون ! ألا ترين هؤلاء الاشخاص من حولك ؟ كلهم شياطين العصر الحديث ...

ابتسمت ورحت أتأمل في القناع الأسود المرمي على الطاولة ، ثم في السيف المعلق فوق مقعدي ، وسألت ممازحة :

— وهل وُضعتْ الأسلحة خصيصاً للدفاع عن النفس ؟

غمرتني نظرته الراضية الباسمة :

— « ناعمتي » ... الموت يحلو من يديك ...

واقترب « الجارسون » فسألني كمال :

ـ ألا ترغبين في كأس من الويسكي ؟

ـ أنا لا أشرب الخمرة إلا نادراً ... شكراً أوثر فنجاناً آخر من القهوة ...

وابتعد الخادم .

ـ هل أعجبك المكان ؟

ـ جميل جداً ... له على الأقل طابعه الخاص ... ولكن أين حلبة الرقص ؟

ـ لا توجد في هذا الملهى حلبة للرقص ... كل شخص يرقص حيثما شاء ... ولا توجد جوقة موسيقية ... بل كل واحد ينتقي الأسطوانة التي يريد أن يسمعها ...

ـ جميل جداً ... تعجبني هذه البساطة ...

ثم سألت بفضول :

ـ ولماذا اختاروا اللون الأحمر ؟ وسموا المكان « حب » لا « جهنم » ؟

ـ لأن الناس يؤمنون أن الأحمر هو لون الحب

ـ ألا تؤمن بهذا أنت ؟

ـ الأحمر هو لون النار ... لون جهنم ... وإذا آمنا أن الحب هو جهنم يكون رأي الناس صحيحاً ... أنا

لا أؤمن بهذا ...

– ما لون الحب برأيك ؟

توغلت نظراته الحنونة في عينيّ ...

وارتجفت شفتاه قليلاً ،

ودمدم برقة وحزم :

– الحب بلون عينيكِ ...

وحضنت يداه يدي :

– نعم ... الحب بلون عينيك ... أخضر عاتم . الحب هو الأمل الحزين ... الأمل اليائس ... هذا هو لون عينيك ... والأمل اليائس برأيي هو أعمق أنواع الحب ..

قلت بحنان :

– الحب ؛ إذن ، دامع ...

– الحب الصحيح دامع دوماً ... فالدمع هو النقاء والحب الصحيح يظل نقياً ...

استوضحتُه فشرح بإيمان :

– إن العلاقة المبنية على حب صحيح ... مهما توطدت بين رجل وامرأة تظل نقية صافية ... لأن الإنسان يكون فيها صادقاً مع نفسه ...

كنتُ مقتنعةً تماماً بما قال ...

فهززت رأسي ...

ودون أن أشعر ...

غرغرت دمعة في عيني ...

كانت دمعتي سؤالاً وجهته روحي إلى القدر ... وصاغ القدر جوابه في قبلة طويلة خبأها كمال في راحتي.

ثم رفع الخضراوين إلى وجهي على أنغام « أنت قدري » وسألني :

ـ هل سمعت هذه الأغنية من قبل ؟

طار بي هذا السؤال أشهراً إلى الوراء ... حملني إليك يا سليم ...

أتذكر هذه الاسطوانة التي اشتريتُها في بلدي، ورحت أرجوك في البيت أن تستمع إليها معي، لأنني أحببتها كثيراً ؟

ثرتَ في وجهي يومها، وقلت لي: إن رأسك ضج بهذه الأنغام السخيفة ... وطلبت مني أن أعفيك من هذا العذاب ...

تدحرجت الدمعة على خدي ... وتهدج صوتي :

ـ نعم ... سمعتها ... وحدي ... وأحبها ...

وأعتقد أنه فهم فهمس :

ـ سأطلبها مرةً ثانية ... وسنسمعها معاً هذه المرة ... واقترب ...

واقترب مني ... وارتفعت يده تمسح دمعتي ووشوشني :
– أرجوك يا رشا ... لا تبكي ...
فدفنت وجهي في كتفه ... كالقطة الخائفة ...
ورجوت بطفولة :
– نعم ... لنسمعها معاً ... مرة ثانية ...

١٠

« – الساعة الثالثة إلا ربعاً ... هل تعبتِ ؟
ألقى بهذه الجملة حين أصبحنا في الشارع .
أجبته باسمة :
– لا ... أبداً ...
ووقفت في حي « مونمارتر » أذرّ نظراتي في العناوين المضاءة ...
ثم اقتربتُ من كمال الذي وقف أمام بوابة فندق صغير .

— يوجد في قبو هذا الفندق بار ضيق جميل ، فيه زنجي يعزف على البيان ... هـذا نوع آخر من علب الليل ... هل تحبين أن تري المكان ؟

وافقت ،

فنزلنا السلالم ودخلنا علبة الليل الصغيرة .

تسمرت في مكاني، وحملقت قبالتي مذعورة ، وتمشى هلع غريب في جسدي، وتثلجت أطرافي .

أنت تذكر، يا سليم، أنني منذ يومين استيقظت مرتعبة في منتصف الليل، وأيقظتك لأخبرك عن حلم مزعج أبصرتُه .

أتذكر هذا الحلم ؟

أبصرت نفسي واقفة على ضفة بحر واسع تصخب أمواجه ... وفي منتصف البحر كان ينتصب صليب أسود مخيف ، وأنا على الشاطيء ... أريد الهرب، لكن قدميّ انغرزتا في الأرض، وعيني التصقتا بالمنظر .

أتذكر ؟

لقد زجرتني :

— منذ متى كنت تؤمنين بالخرافات ؟ هذا الحلم لا يعني شيئاً ...

وعدت إلى أحلامك وبقيت أنا حتى الصبح اتقلب في سريري، ولا أجرؤ على إغماض عينيّ خوفاً من أن يتراءى لي من جديد هذا الحلم الذي اخافني ...

– ماذا بك يا رشا ... ماذا بك ؟

لم أستطع أن أردّ على كمال ... بل ظللت واقفة في المدخل وعيناي تحملقان في الصليب الأسود الكبير المرسوم على الحائط قبالتي .

– ماذا بك ...؟

تأتأت :

– ه ... هذا ... الصليب !

– الصليب ؟ أنا لا أفهم ... ما بك ؟

لملمت فتات أعصابي، وقلت بصوت مرتجف :

– هذا الصليب يخيفني ... يخيفني ...

– لماذا ؟

– أبصرته في نومي منذ يومين ... وخفت ...

ابتسم بحنان :

– ولماذا تخافين ... إن حلمك قد تحقق ... معنى هذا أنك شعرت مسبقاً بأنك ستزورين هذا المكان ... لا شيء يستدعي الخوف ...

اقتنعت نوعاً ما بكلماته لكن القشعريرة لم تفارق جسدي ...

ـــ هل تريدين أن نغادر المكان ؟

ابتسمت له ودون أن أردّ تقدمته متشجعة إلى الداخل، وشققت طريقي في الدخان المتراكم إلى طاولة صغيرة قريبة من البيان الأسود الذي كان يستجيب بصورة ساحرة مداعبات أنامل الزنجيّ.

جلست ملتصقة به
فأمسك يدي وغمغم :
ـ يدك مثلوجة ... أما زلت منزعجة ؟

واقتربت المستخدمة ...
فالتفتَ إليّ كمال :
ـ ماذا تطلبين يا رشا ... أنا سآخذ كأساً من الويسكي
ابتسمت :
ـ وأنا ايضاً
توسعت عيناه ...
ثم امتلأتا بحنان فائض غمرني ...
ولفتني ذراعه ...
فهفا الدفء من جديد يذيب الصقيع الذي غلفني.

وجيء بالويسكي
فنظر إليّ كمال قلقاً .
فهمت نظرته وابتسمت :
ـ لا تخف ... ليست هذه أول مرة أشرب فيها « الويسكي » ...
ورفعنا كأسينا
ودون كلام شربنا نخب لقائنا ...

وكانت أنغام البيان ترتفع نداءات حزينة يائسة فتختلط بالدخان وتتلاشى معه ...
ـ أحبّ كثيراً هذا النوع من الأمكنة ...
ابتسم :
ـ فهمت هذا ... لذلك أتينا إلى هنا ولو أن هذا المكان لا يليق بك ... على كل حال لن نمكث هنا أكثر من ربع ساعة ...
ثم جالت نظراته في المكان متسائلة، وقال :
ـ لست أدري إذا كانت إدارة هذا المكان هي نفسها إدارة الفندق في الطابق العلوي .
ونهض معتذراً :
ـ دقيقة واحدة أرجوك ...

فهمت فوراً أنه ابتعد ليسأل عن الفندق ... ولم أهتم ...!

ونظرت حولي ...

على مقربة مني كان رجل يقبل فتاته ...

من الناحية الثانية كانت امرأة تضحك بأعلى صوتها بين رجلين يجرعان النبيذ بشراهة .

وعلى حلبة الرقص الصغيرة جداً كان خيال واحد يضيع في الدخان ...

والتفتّ ناحية البيان ، فرأيت رجلاً يرشق إلي نظراته .

ابتسمَ ، فاغرقت عينيّ في كأسي ... لكنه اقترب مني وسأل :

ـ أرى أن الحلوة وحيدة ؟ أنا هنا ...

ارتعدت لكنني قلت بجد :

ـ لا ... لست وحيدة !

ـ ولماذا لا ترقصين معي في فترة الانتظار ؟

ـ أرجوك ابتعد عني ... لست وحيدة ...

فجلس إلى جانبي لامبالياً ... وقال بميوعة :

ـ اسمعي نصيحتي ... لنرقص !

شعرت بخوف ... بوحدة ... بضعف ...

فوقفت تائهة وخطوت خطوتين ... وإذا بي قبالة الصليب الأسود الكبير ...

ارتجفت ... وعدت مسرعة أقطع حلبة الرقص لأبحث عن كمال ...

وإذا هو أمامي ... يفتح لي ذراعيه ...

— ماذا بك ؟

— خائفة ... خائفة ...

ضمني بقسوة إلى صدره ...

ودفن ثغره في أذنيوراح يتمتم :

— حبيبتي ... حبيبتي ... يا حبيبتي ...

وحركت أنغام البيان خطواتنا ... وطوقنا الدخان ... فتعلقت ذراعاي بكتفيه ... وشعرت في تلك اللحظة أن هاتين الكتفين هما السور الوحيد الذي يحيط بكياني ... وان لا حياة لي إلا في داخله ...

فالتصقت به ...

وغمرتنا النغمات الحريرية ... ورقصنا ... ورقصنا ... حتى تلاشينا كنغمة من النغمات ...

وبانتهاء الرقصة غادرنا المكان ...

ومشيت إلى جانب كمال راضية ... ولم أهتم إلى أين كان يقودني ...

ففي تلك اللحظة ... كنت مستعدة أن أتبع كمال حتى آخر الدنيا .

١١

سلالم ضيقة ترفعنا ... تلفنا ... تطوينا ...
لتلفظنا في ممر طويل ضيق ، تضيئه أنوار خافتة وتطل من على جدرانه أرقام غرف متعددة ...

والذراع القوية تحيط كتفيّ بحزم ... فتشعرني بأمان ... وتدلني على طريقي ...!
وهناك ...
في نهاية الممر وقف كمال أمام باب غرفة . فنظرت

إلى رقمها ... وابتسمت .

وتمتم كمال :

– خمس وعشرون ... أحبّ سنوات عمرك يا غالية ...

واحتوتنا علبة صغيرة عادية الأثاث ، ودارت نظراتي تتفقد الغرفة تفقداً .

وساعدني كمال على خلع معطفي

وبينما كان يهتم بوضعه على الكرسي ، اقتربت من المرآة ...

وغابت نظراتي في عينيّ ،

وارتفعت يدي تتحسس الزيتيتين بهدوء ، وكأنها تريد أن تمسح عنهما غبار السنين الماضية ، ليكون الحاضر نورهما الوحيد ...

والتفتّ إلى حاضري ... إلى كمال .

كان يقدم لي لفافة ، فعانقتها أناملي ، وتركت يدي الاخرى تستريح في يده ،

وابتسمت له بحنان .

لم أعتبر وجودي معه في غرفة واحدة حادثاً غريباً .

بدا لي الأمر طبيعياً جداً أنا التي كنت أحسّ نفسي دائماً غريبة في غرفة نومنا يا سليم ...

غرفة نومنا المترفة ...

غرفة نومنا الغاصة بالرياش وبالحرير ...

غرفة نومنا الموحشة ... الباردة برغم الأموال المجسمة فيها أثاثاً ...

ما قيمة الرياش ، ما قيمة الحرير ما دامت النفس عالماً مغلقاً ينوح من زمهرير الشتاء ...

نعم ...

لم أعتبر وجودي في غرفة غريبة أمراً غير عادي .

ألأن كمال استطاع أن يضيء سماء نفسي ، ويصب أغاني الربيع فيها ؟

واقتربت من السرير الحديدي ، وجلست على حافته ... دون أن اسحب يدي من يد كمال .

وقف ...

وأمرّ أنامل يده الحرة على شعري بحنان ... ثم ركع بقربي ...

وانحنى الرأس الشامخ ليقبل قدمي بشوق ...

وزحفت شفتاه على صقيع المرمر ... ليركن رأسه

الحبيب على ركبتيّ بخشوع ... ويأس ...
وارتعش الصنم !
بلى ... ارتعش الصنم !
الصنم !
هذا الصنم الأسمر الذي كان يرتمي الى جانبك يا سليم دون حراك وكأنه تمثال نحت من ليالي الشتاء القارسة ... هذا التمثال الجليدي تدفقت فيه الحياة ... وسالت في عروقه النيران ... وأشرقت في عينيه شموس بلادي المحرقة ...
فارتعش ... وانتفض ... وتلوى ...
وشعر بأن كل خلية من خلاياه تريد أن تعطي ... تريد أن تفنى في العطاء ...

قذفت باللفافة بعيداً ...
ومددت يديّ برفق ...
أرفع الرأس الأنوف ...
ليتسنى لي أن أغمر نفسي بنور عينيه ....
لأنهل رحيق حياتي من دمع عينيه ...
ولاغرق في عينيه ... وجودي .

ومرة أخرى ...
التقت نظراتنا في خط مضيء شع في نفسينا ... فانبهرت نفسانا ...
وسالتا رجاءً ملحاً في الجوارح ...

وبين أسلاك النظرات السائلة ... المتسائلة ...
غرّد الشوق على أهدابه ...
فأجابه نداء توجع على شفتيّ ...
وارتجفت أناملي على الوجه النحيل ... وحاولت الهروب من الأنفاس الحارة الثائرة ... فتمشت بوجل على الوجنتين ... لتنهدّ حول العنق ... بإعياء ... مستسلمة .

وفي صمت الليل ...
كانت ذراعان قويتان تزنران سمرة سكرى بأمل العطاء ...
ويتمزق السكون فجأة ...
بحشرجة حذاء ارتطم بالأرض ... وبتنهدات قضبان سرير حديدية ...

وينطوي الليل على طيفين ... احتواهما الدفء
فوحدهما في خيال واحد ...
ترنح طرباً ...
واحترق شوقاً ...
وذاب همهمة ... وأنينا ...

١٢

« لأول مرة في حياتي يا سليم فهمت قيمة جسدي ...
لأول مرة فهمت أن هذا الجسد ليس فقط أداة ... ليس فقط غديراً بارداً ينهل منه عطشان ... فيطفيء رغبته ... ويروي شهوته ... ويسرق منه لذة موقتة ..!

لأول مرة فهمت أن جسدي دنيا جميلة ... يصل إليها من استطاع أن يسبر أغوار نفسي ... فتغمره بالدفء ... وتغرقه بالحنان ... وتنثر تحت أقدامه

الأزاهير ... وتمنحه شيئاً أسمى من اللـذة وأغلى من الفرح ... وأعذب من النشوة ...

نعم

فهمت أنّ هذا الصنم يستطيع أن يكون نبعاً يفيض حناناً وحباً ...

ويستطيع أنْ يمنح ... السعادة !

وامتزجت خلايانا بثواني اللحظات ... لنتلاشى مع الزمن في هذه السعادة ...

وعلى ضوء المصباح الخافت ... التقت نظراتنا ... ولكن ... في هذه المرة لم تجمد عيناي ...

بل طفرت دموعي وكأنها أرادت أنْ تضفي تألقاً على بريق اللحظة .

واقتربت شفتاه تلملمان العبرات ... ودمدم :

– يا حبيبة عمري ... يا حبيبتي

فالقيت رأسي على كتفه ... وغرقنا في صمت إلهي ...

السعادة الحقيقية تغلل النفوس بالصمت وتشعر الإنسان باللانهاية ... وبالعدم في آن واحد ...

ففيها يختلط الموت بالحياة ... وتسمو النفس عن عالم الوجود ... وتصبح أكبر من أن تفرق بين الموت والحياة ...
فتصمت ...

لست أدري كم من الوقت مرّ علينا ونحن شاردان في السكون الشفاف ... ولكن دقات ساعة قريبة أعادتنا إلى الواقع ... لتخبرنا أن الساعة هي الخامسة صباحاً وأن الحلم قد ولى ...

والتفتّ كل منا إلى الآخر ... وبكى اليأس في عيوننا ... لأننا تذكرنا أننا ما زلنا أحياء، وأن كلاً منا بمفرده سيحمل على أكتافه في سني حياته المقبلة ، ذكرى سعادة أقوى من الموت .

ودون أن أتفوّه بأية كلمة ... وقفت بسكون ... وارتديت ثيابي بصورة آلية ... واقتربت منه ...
وهمت نظراتي لآخر مرة في بستانين بكى الربيع فيهما.

وكان يعلم أنني لا أريده أن يوصلني ... بل كان

هناك اتفاق سري صامت بيننا أن نفترق على هذه الصورة .

ثم خطوت نحو الباب ... وقبل أن افتحه ... كان كمال يفتح لي ذراعيه ، ليحتضنني بقوة ورقة ... ليحتضنني بتمزق زاده اليأس حناناً ...

وتلامس وجهانا ...

فرفعت يدي أمسح دمعتين مزجتهما عينانا على وجنته ودون أن أقول شيئاً انتشلت جسدي من بين ذراعيه ...

ورأيته يسند جبينه المثقل إلى الباب ، ويخفي وجهه الباكي بين يديه المتقلصتين ...

فحملت صورته الأخيرة تحت أهدابي ... وانطلقت إلى الشارع ... تائهة ...

أسائل صقيع فجر باريز عن طريقي إلى فندقي ...

١٣

" خنتك !

خنتك يا سليم ...!

كلمة قذرة أبتديء بها هذه الصفحة ، وأنهي بها رسالتي ...

خنتك ... !

كلمة مروّعة ومنحطة بالنسبة لمفهوم الناس وللمفهوم الأخلاقي ...

كلمة قبيحة من جميع وجوهها ... وبشتى مفاهيمها ...

ومعانيها ...

كلمة قذرة بالنسبة لمفهومي أنا ...

فمن الرخص أن تهب المرأة نفسها رجلاً غير الذي تعاهدت معه على الوفاء ...

من السفالة أن تخون المرأة إنساناً وضع فيها ثقته ...

ومن الدناءة أن تلوث اسماً رضيت في الماضي أن تحمله ... !

نعم كلمة ثقيلة ...

ولكن معناها يهون ... يهون ... يتضاءل أمام هذا الشعور المرهق الذي يستولي عليّ الآن ... هذا الشعور المضني ...

شعوري بأنني كنت طوال إحدى عشرة سنة ... أخون نفسي !

إن معنى الخيانة امّحى من ضميري البارحة ، فالبارحة لأول مرة في حياتي كنت صادقة مع نفسي ...

البارحة ... لأول مرة في حياتي ... وهبت نفسي ؛ وهذه هي خيانتي يا سليم ...

أما انني قد وهبت جسدي فهذا أمر تافه وبديهي ...
أليست النفس أغلى من الجسد وأثمن منه ؟
أليست النفس عالماً صعب المنال ؟
اليست النفس هي منطقة الحرام ؟
وما قيمة الجسد ... حين تنكشف النفس ؟
وهل يبخل الإنسان بجرعة ماء على الذي شرب من عينيه ؟
وهبت نفسي ...
ونفسي يا سليم أغلى من كتلة لحم صاغتها الطبيعة بشكل امرأة !

في الأمس فهمت أن جسدي من ممتلكات نفسي، وأنه لم يكن يحق لي أن أتصرف به في الماضي ...

نعم خنتك !
ومع أني ما أردت في حياتي أن أؤذيك إلا أنني غير آسفة ...
فأنا الآن أستطيع أن أواجه نفسي، وأستطيع ونفسي أن نواجه الحقيقة ...
وهل هناك أروع من أن يواجه الإنسان الحقيقة ؟

فيرضخ لها شامخ الرأس ...
ويبتسم لها دامع العينين ... ويقبل حكمها بقوة ... وثقة ... وإيمان ...

وأنا الآن أكتب إليك، يا سليم، على ضوء الحقيقة .
أكتب إليك لأقول: إنني لن أعود ...
فأنا أضعف من أن أعيش إلى جانبك، وأنا أحمل على كتفيّ عبء خيانتين ...
خيانتي إياك مع كمال ... وخيانتي نفسي معك ...

فلا تسل عني ...
ودعني أمضي في طريقي ...
ومع العلم بانني سأظل وحيدة، إلا أنني سأكون قوية في وحدتي ...
لأنني لأول مرة ... سأعيش مع نفسي ... ولنفسي .

يا سليم ...
قد تقول: إنني قاسية ... لأنني اعترفت لك بكل هذا ...
هل أنا فعلاً قاسية لأنني بحت لك بالحقيقة ؟

الحقيقة هي القاسية دائماً ...
الحقيقة تجرح ... ولكنّ جرحَها صافٍ ومرضٍ وجميل ...
من كل قلبي أتمنى لك التوفيق ...
أما أنا ... فلن أعود ...

من قال ...؟
من قال يا سليم ... إن حياة خمس وعشرين سنة ... ستنقلب رأساً على عقب ... في مدى ... ليلة واحدة ؟ »

رشا ...

القسم الثالث

١

مزّق هدوء الغرفة فجأة زعيقُ الهاتف ... فذعرتْ رشا ...

وسقط القلم من يدها ...

وانفرجت الأنامل لاشعورياً تحاول إخفاء آخر صفحة من صفحات رسالتها المبعثرة أمامها ...

والتفتت إلى مصدر النداء ...

فارتبكت ...

وكأنها الآن فقط تنتبه لهذه البومة السوداء الجاثمة

على المكتب والتي كانت تراقب كل تصرفاتها ... وتفهم أصغر انفعالاتها ...

وامتد النداء ... واتصل الرنين ... وغدا الزعيق أنيناً متقطعاً ...

وابتدأ يخفت في أذني رشا ليرتفع صوت آخر من أعماقها يسألها معاتباً :

« ما بك ؟ لماذا ترتجفين هكذا ؟.. أنسيت أنك في غرفة فندق وأنك تنتظرين مخابرة من صديق زوجك ؟ ما الذي يخيفك ؟ »

وهزت رأسها وكأنها تعيد الأفكار التائهة إلى أمكنتها ... وأمرت يديها على وجهها ... لتزيل من عينيها قصة عاشتها في رسالة ، ولتخطّ على الوجه أسطر الواقع ...

ثم اقتربت اليد من السماعة ببطء ... ورفعتها ... وهمس الثغر بخوف :

– نعم ؟

حملت الأسلاك إلى سمعها صوتاً عريضاً،يقول لها :

– الحمد لله على سلامتك ... اعتذر لعدم تمكني من استقبالك البارحة ... هل أعجبتك الغرفة ؟ هل

استرحت من رحلتك ؟
ماذا يقول ؟
كيف تردّ ؟ وماذا تقول هي ؟
إنها تخاف من التحدث !
لابد من أن يكتشف كل شيء في صوتها !
غمغمت :
ـ شكراً ... شكراً ...
ـ سيدتي ... لقد تأجل موعدك مع الطبيب ساعة ...
أي أصبح في الحادية عشرة والنصف ...
« موعدها مع الطبيب ... »
« موعدها مع الطبيب ... »
راحت أفكارها تلوك هذه الجملة :
« موعدها مع الطبيب ... »
« موعدها مع الطبيب ... »

وكانت كلمات صديق زوجها تتدافع في الأسلاك لتصل إلى سمعها أجراساً مدوية ... تذعرها !
هذا الصوت القوي ... الآتي إليها من عالم الأحياء الأصحاء ... يخيفها ويشعرها بضآلتها !
ـ لم أخابرك قبل الآن ... خفت أن أوقظك، فالنوم

في الصباح لذيذ في باريز ... أليس كذلك ؟
ماذا يقول ؟
« موعدها مع الطبيب ... موعدها مع الطبيب ... »
تلعثمت :
– نعم ... نعم ...
فأردف يسأل :
– متى تعودين إلى مرسيليا ؟
لماذا يتحدث كثيراً هذا الرجل ؟
لماذا يثرثر هكذا ؟
إنها تعبة ... تعبة ... تعبة ..!
قالت بجهد :
– عفواً ... لم أسمع ...
واستجمعت حواسها لتسمع سؤاله من جديد :
– متى تعودين إلى مرسيليا ؟ هذا المساء كما كان مقرراً ؟
أرعبها السؤال فصرخت :
– إلى مرسيليا ؟
لكنها تمالكت وهمهمت :
– لست أدري ... الآن ...
وصلت إليها ضحكة لطيفة ، تبعها الصوت العريض

قائلاً :

– يبدو أنك ما زلت تعبة من الرحلة ... بوسعك أن تستريحي ساعة أخرى فالساعة الآن التاسعة ...

استسلمت :

– فعلاً ... أنا تعبة ... يجب أن أستريح ...

– حسناً ... إذن سأخابرك فيما بعد ... هل تودين أن أرافقك إلى الطبيب ؟

– ماذا ؟ ترافقني ؟ لا ... لا ... شكراً ...

– إذن أرجو ان تقبلي دعوتنا أنا وزوجتي إلى الغداء ...

هذا الرجل يلحّ على محادثتها !

ألم يكتشف في نبرات صوتها أنها تغيرت ؟ إنها لا تريد أن تراه ...

ولكن ...

لماذا تظن أنه سيفهم ؟ وإذا تغيرت نفسيتها ... كيف تظن أن شكلها سيتغير ؟

– هل نمرّ بك في الواحدة ؟

حاولت أن تتخلّص :

– شكراً ... شكراً ... أوثر ألا أزعجكم

– هذا واجب يا سيدتي

– شكراً ...

– انت طبعاً تعرفين عنوان الطبيب ؟
– نعم !
– إذن ... إلى اللقاء ... وأرجو لك التوفيق !
وانقطع الخط !
وشعرت رشا بشيء من الراحة يتسرب إلى نفسها فتنهدت ...
وأعادت السماعة إلى مكانها ...
وحاولت بهدوء أن تلملم أفكارها ... وأن تستجمع حطام قواها .
موعدها مع الطبيب في الحادية عشرة والنصف ...
ولكن ...
لماذا تذهب إلى الطبيب ؟ لماذا ؟
هل هي الآن تريد طفلاً ؟
وشعرت باشمئزاز !
كيف ... كيف تقبل طفلاً من زوجها الآن ؟
لا !
لن تعود إلى زوجها !
لن تعود إلى بلادها !
لا ! لن تذهب إلى الطبيب !
لن ترى الأصدقاء ... لن تذهب إلى الغداء ...

لن تذهب إلى ...
ولكن ... ولكن ...
إلى أين تذهب ؟
إلى أين ... إلى أين ؟

وتراءى لها طيف كمال ... فملأها إحساس غريب !
كمال لم يعد في ناظريها رجلاً مادياً ... بل شبحاً ... بل خيالاً ... بل حلماً !
كمال كان اداةً رائعة استعملها القدر ليشرح لها ، ولو على حطام نفسها ، معنى السعادة الحقيقية ، وليكشف لها عن عالم مجهول كان ضائعاً ومغلقاً في أرجاء روحها !

وارتفع في ذاكرتها صوت كمال ، ووجدت نفسها تردد جملته :
« كيف أهدم ما بنيته طوال تسع وثلاثين سنة ؟ »
« كيف أهدم ما بنيته طوال حياتي ؟ »
« كيف أهدم ... كيف أهدم ... كيف أهدم ... »
وراحت الجملة تطن في أذنيها ... وتقرع دماغها ...

فشعرت بأن رأسها سينفجر !
وثارت على نفسها !
ما شأنها وهذه الجملة ؟
إنّ هذه الجملة تناسب كمال ولا تنطبق عليها هي !
إن حياتها تختلف عن حياة كمال !
إنها لم تبنِ شيئاً !
إنها لم تعش ... لم تعش ... لم تعش !
كانت فقط تزيد عدد الأحياء واحداً !
كانت تعيش بلا هدف !
كانت تعيش وحيدة !
كانت تعيش حزينة !

ولكن ...
واستيقظت في أعماقها مبادىء قديمة ... قديمة ... مبادىء خدرتها أصابع القدر التي تمددت في نظرات خضر ...
وراحت تسألها بإلحاح :
« هل كنتِ حقاً تعيشين بلا هدف ؟

ألم تكن لك في اللاشعور أهداف ؟
ألم تسعدي أهلك ؟ ألم تهيئي مستقبل أخواتك ؟ ألم تحافظي على بيتك ؟
ألم تطمحي إلى العلم ... إلى المعرفة ؟
ألم تحلمي بزعيق طفل يمزق سكون بيتك ؟
ألم تكن كل هذه ... أهدافاً ؟ »

وتثور النفس !
« لا ... لا ! عشت بلا هدف »
فتصرخ الذاكرة :
« كيف أهدم كل ما بنيت ؟ »
« ولكنني لم أبنِ شيئاً ! »
وتعود المباديء الراسخة تسأل :
« أليس مجرد العيش على طريقة واحدة ، ومجرد استقبال كل يوم جديد بمبادىء ثابتة لا تتزعزع هو بناء ؟ »

بلى !
دون أن تشعر كانت تبني طوال خمس وعشرين

سنة ! دون ان تدري ...
وعادت الجملة تدوي ... وترهق اعصابها :
« كيف اهدم كل ما بنيت ... كيف اهدم كل ما بنيت ؟ »

وشعرتْ بضيق ...
فوقفتْ واقتربت من النافذة ... وازاحت الستائر ... وارتمت نظراتها على الشارع ...
خيوط شمس باهتة ، مريضة تتلكأ على الرصيف ... وتتمرغ في الوحول !
الشارع فارغ من المارة ... والسكون لا يجرحه الا وقع خطوات غليظة في المنحنى .
ضباب عكر يملأ الفضاء !
صباح باريز كئيب ... حزين ... معتم !
وطارت مخيلتها الى بلاد الشمس ... بلادها ...
الى الاشعة المتلألئة في الشوارع ...
الى الاجواء الصافية المنعشة ...
الى الضياء المتسرب مع الصباح الى كل شيء ... حتى الى النفوس الحزينة ... الى نفسها ...
وهتفتْ :

ـ ما اجمل بلادي !

فارتفع صوت في داخلها يسألها :

« أليس حبك لبلدك ... هدفاً ؟ »

وتجمّد تفكير رشا كله في هذه الجملة !

نعم !

انها تعشق بلادها ... و ...

حملتها هذه الفكرة الى كمال ...

وعادت بها المخيلة ثلاثين عاماً الى الوراء ، لترى طفلاً صغيراً يلعب ... ويركض في بلاد غريبة وفي عينيه الخضراوين تلمع دموع الحنين ...

حرم كمال من رؤية بلاده ...

حرم كمال الطفل من اللعب على اراضي بلاده ...

وشعرت بحنين الى الطفولة !

يجب ان يكون لها طفل ... يولد مع الصباح المشرق ويترعرع تحت الشموس المحرقة ...

يجب ان يكون لها طفل ... يشرب من مياه بلدها ويغذيه تراب بلدها ...

وسيكون طفلها طفل بلدها الحبيب !

كيف ترددت في الذهاب إلى الطبيب ؟
لن تعود إلى زوجها ...
ولكن هذا لا يمنع من أن تذهب إلى الطبيب ...
فهي لن تستطيع إلا أن تعود إلى بلادها ...

واقتربت من الطاولة ...
وراحت تعيد قراءة الرسالة الطويلة ... الطويلة ...

٢

فجأة ...

توقفت رشا عن القراءة !

ورفعت رأسها بهدوء ... وزاغت نظراتها في كلمة تراقصت في الفضاء بين علامات الاستفهام !

وتجمّعت أفكارها في هذه الكلمة ...

وغدا كيانها كلّه صدى هذا السؤال :

« لماذا ؟ »

لماذا ... نعم لماذا ؟

لماذا كتبت هذه الرسالة ؟
ولماذا ترسلها إلى سليم ؟
لماذا ؟
لماذا تهدم كل ما بنته في أيامها الماضية باعتراف لا تعلمه إلا صفحات رسالة ؟
لماذا ؟
ألأنها تحبّ الوضوح ؟ ألأنها صريحة ؟ وما فائدة صراحتها في مثل هذه الحال ؟
وماذا تجني من الوضوح ؟
لماذا تبوح بسرّ لا يعرفه أحدٌ سواها ؟
لماذا لا تجعل من سرها تمثالاً تنصبه في معبد مغلق في نفسها ؟
لماذا ؟
ما الذي يضطرها إلى الاعتراف ؟

ثم ...
هل سرها مروّع ... خطير إلى هذا الحد الذي تتخيله ؟
هل سرها ثقيل للغاية ... حتى إنه يمنعها من العودة إلى زوجها وإلى بلدها ؟
لماذا تحمّل الأمور أكثر مما يجب ؟

وهل هي أول امرأة تخون زوجها ؟
وراحت ذاكرتها تستعرض المشاهد القديمة ...
قصص وحكايا تدور في مخيلتها ...
نساء ونساء عرفتهن ...
وكلهن مندفعات إلى خيانة الزوج ...
وكل واحدة منهن تدخل حجرة الخيانة من باب !
وما أكثر الأبواب ...
وما أكثر الدوافع !

نساء ونساء يخن أزواجهن بقصد أو دون مبرر أو فلتقل دون مبرر كاف !
والزوج راض دائماً ... دائماً ...
فهو دائماً يجهل ... أو يتجاهل !!!

قصص الخيانات الزوجية أصبحت عادية في بلدها ...
فلماذا يثقل ضميرها الآن حلم عاشته في ليلة ؟
وهل كانت ليلتها أكثر من حلم واقعي ؟

لقد كانت دائماً مخلصة في الماضي ...

مخلصة لا لزوجها ... ولكن لمبادئها ...
وقد خانت الزوج في الأمس ...
ولكن ...
هل خانت مبادئها ؟
كانت حالتها في الأمس لا تسمح لها بالاختيار كانت منقادة بقوة لا إرادية ...
لم تكن سوى دمعة جرفها تيار القدر !
بلى
حتى خيانتها كانت نوعاً من الاستسلام لحقيقة واقعة !

لا ... لم تخن !
بل اكتشفت معنى في حياتها ... معنى ضائعاً كان يجب أن تكتشفه في يوم من الأيام ...
معنى سوف يشعّ على واحات خيالها وذاكرتها ولو أنه لا يشكل سوى طريق مسدودة !

وأجالت الطرف حولها ؛
هذه الغرفة الغريبة ...
إنها جاءت إلى هذه الغرفة منذ ساعات فقط ...

ولكنها لم تنتبه لها ...
هذا السرير العريض الذي لم تمسّه ! وهذا الديوان الأنيق ... و ... و ...
وشعرت فجأة بوحشة !
إنها هنا غريبة !
غريبة في هذه الغرفة ... غريبة في هذا البلد ...
غريبة عن هذا العالم !

حقاً ...
لقد كانت غريبة مع زوجها ... ووحيدة في بيتها ...
ولكن البلد بلدها ...
والبيت بيتها ...
أما الآن ...
فهي وحيدة ... وحيدة ... وحيدة ...
وانتابها شعور يشبه الخوف !
إنها أشبه بالسمكة الوحيدة التي ابعدت عن بحيرتها .
إنها لم تتعوّد أن تستنشق الهواء إلا في جوها الأليف ...
وهي الآن تكاد تختنق !

وامتلأت نفسها بالحنين إلى بيتها ... إلى أشيائها

الصغيرة !

فنجان قهوتها الاخضر ... المزهريـة السوداء على الطاولة في الركن ...

جلد الحروف الأبيض الذي كانت تغوصُ فيه كي تقرأ المجلات !

يجب ... يجب أن تعود إلى بيتها !

وبين لجج أفكارها ... أطلت العينان الخضراوان ... وابتسمتا ...

فطفرت دمعة حنون يائسة من عينيها ...

كمال ...!

كمال كان حلماً ... ولا يمكن إلا أن يظلّ حلماً ...!

يجب ...

يجب أن تعود إلى بيتها ...

وفي أسرع ما يمكن ... إنها خائفة !

يجب أن تعود إلى الأمان ... إلى الواقع ...

لأن الحلم مهما كان رائعاً لا يستطيع أنْ يكون سنداً للمرأة !

ستعود ...

ستعود إلى بيتها ...

لن تخبر سليم بشيءٍ !

لا ... لا !

لن تبعث بالرسالة !

٣

— « ألو » ... من فضلك يا آنسة ... هل لك أن تخبريني متى يذهب أول قطار إلى مرسيليا ؟

وبعد لحظات كان صوت المضيفة في الفندق يجيب من الطرف الثاني في القاعة :

— الساعة الواحدة وعشر دقائق يا سيدتي يغادر « المسترال ... »

— شكراً لك ... أرجو أن ترسلوا إليّ حساب الغرفة

حالاً ...

وأعادت رشا السماعة إلى مكانها وهرعت إلى حقيبتها الصغيرة تحشر فيها كل حوائجها .

يجب ...

يجب أن تلحق قطار المسترال . .

لن تتأخر عند الطبيب ...

يجب ...

يجب أن تعود في أسرع ما يمكن إلى زوجها ... إلى بيتها ... إلى حياتها القديمة ...

يجب أن تهرب من عاطفتها ... من ذاكرتها ... من حلم جميل يملأ عينيها ...

الساعة الآن تقارب الحادية عشرة

ستغسل وجهها وتبدل ثوبها بسرعة ...

يجب أن تكون عند الطبيب بعد نصف ساعة ! فالأمل الذي قد يساعدها على تحمّل مستقبلها ... الأمل الوحيد الذي قد يسهل هروبها من حاضرها قد يهمسه لها الطبيب ...

أملها الأخير أضحى في مقابلة الطبيب ... وقراره !

يجب ان تكون عنده بعد نصف ساعة ... ثم ... في طريقها إلى مرسيليا ...

*

على المقعد الجلدي الأسود جلست رشا قلقة تنتظر حكم الطبيب !

لقد أجرى لها فحصاً دقيقاً طويلاً ...

فحصاً طالما مرت به عند طبيبها في دمشق .

لقد نقمت على طبيبها في دمشق ... فقد كان دائماً يقول لها إنها بعلاج بسيط تستطيع أن تحمل .

واتبعت العلاج سنين طويلة ... لكنها لم تحمل !

والآن ...

إنها تنتظر حكم هذا الطبيب ... فقد قيل لها إنه من أحسن اطباء فرنسا ...

*

رفع الطبيب رأسه ... ولمعت عيناه من وراء زجاج نظاراته وسأل :

– من عالجك قبل الآن ؟
– طبيبي في دمشق ... لماذا ؟
– لقد عالجك على أحسن وجه يا سيدتي ولم تكن بك حاجة إلى الإتيان إليّ ... متى تم علاجك ؟
– منذ سنة تقريباً ... ولم أذهب إليه بعدها ... فقد قال لي: إنني شفيت تماماً و ... ولم اؤمن بذلك !
جاء سؤاله قاطعاً حاداً :
– وهل كنت طيلة هذه السنة مع زوجك ؟
احمرت وجنتاها :
– نعم ...
– سيدتي هل زوجك بصحة جيدة ؟
استغربت وقالت بتعجب :
– نعم ... اعتقد ذلك !
– هل أجرى فحصاً لنفسه ؟
– لا ... لا اعتقد ... لماذا ؟
– هل أنت واثقة ؟
لم تردّ فوراً ...
فقد خجلت أن تقول للطبيب: إنها تجرأت مرة وطلبت إلى زوجها أن يجري فحصاً لنفسه ... فغضب ... وقال: إنه بصحة جيدة، وان كبرياءه تأبى عليه ان يعرض نفسه

على طبيب ...

لماذا رفض يومها ؟

وعجبت رشا ، وأعاد الطبيب سؤاله :

– هل أنت واثقة ؟

– نعم ... لماذا ؟

فابتسم الطبيب :

– يا سيدتي ... لانك أنت تستطيعين أن تحملي في أية لحظة ...

قاطعته :

– ولكن ... ولكن زوجي ...

– سيدتي ... قد يكون عنده ضعف بسيط لا يظهر إلا بالفحص والتحليل ... ومن السهل علاجه لماذا لا تطلبين إليه أن يجري فحصاً لنفسه ؟

– ولكنني أنا المريضة ...

– ما هذا الكلام ؟ أنت طبيعية جداً ... كنت تشكين في الماضي من اضطراب بسيط وقد عالجه طبيبك في دمشق ...

صمتت رشا .

إذن ... لقد كان طبيبها في دمشق على حق !

لكنها كانت يائسة فلم تصدقه !

وبدا لها تصرفها سخيفاً !

كانت تثق بطبيب بلدها ... ولكن اليأس يجعل الإنسان يبحث عن أي سراب ... ليتعلق به .

– سيدتي ... كل ما أستطيع أن أفعله هو أن اعطيك تقريراً بأنك بصحة جيدة ... وأنصحك بأن تطلبي الى زوجك أن يفحص نفسه ... وأتمنى لكما التوفيق ...

*

خرجتْ من عند الطبيب تائهة ... ضائعة !

هل من الممكن ... هل من الممكن أن يكون زوجها هو ... هو ...؟

ولكن ...

لماذا لم يعترف إليها بهذا ؟

لماذا تركها كل هذه السنوات تعتقد أنها هي السبب ؟

لقد كان يعلم !

وإلا ... وإلا ...

وعادت بها الذاكرة إلى الوراء ...

ألم يقل لها مراراً منذ سنوات :

« لا تذهبي إلى طبيب ... نحن سعيدان هكذا ...
أنا لا يهمني أن يكون لنا أطفال ...! »

أي رجل في بلدها لا يهمه أن يكون له اطفال ؟
كانت تعزي هذا إلى طيبته ... ولكنها الآن تفهم !
ألم يثر حين طلبت إليه أن ترافقه إلى اوروبا ؟ ألم تضطر إلى النفاق ... ألم تقل له إنها تشعر بأوجاع غريبة وأنها تخشى أن يكون عندها مرض خطير ؟

ماذا تقول له الآن ؟
وأحست بأن أملها الأخير ... الأخير قد تحطم !
لن يكون لها طفل ...
لن يزخرف هدوءَ مستقبلها صراخُ طفل ...
تهشم أملها ... تهشم !
وهفا طيف كمال ...
وسار إلى جانبها ... يسألها ... يرجوها أن تبقى معه ...
إنها بصحة جيدة ... بصحة جيدة ...
انها تستطيع أن تنجب في أية لحظة ... أية لحظة ...
وليلة الأمس ؟

ربما أثمرت ...؟
ربما أثمرت ... ربما أثمرت ...
تستطيع أن تنجب !
طيف كمال يستعطفها ... أن ترحم شبابها ، وتظل إلى جانبه ؟
الطيف يرجو ...
لا ... لا ...
يجب أن يعود كمال إلى زوجته ... وابنته !
وهي ؟
ماذا تفعل ؟
هل تردد على زوجها ما قاله لها الطبيب ؟
ماذا تقول له ؟
ماذا تقول ؟
ماذا تفعل ؟
هل تواصل سيرها في درب النفاق فتقول لزوجها إن مرضها ليس خطيراً ؟
ماذا تفعل ؟

•

الافكار تتلاحق ... تتضارب ...
وخطواتها تتسابق !
يجب ...
يجب أن تلحق قطار الساعة الواحدة وعشر دقائق !
يجب أن تهرب من السماء التي يعيش تحتها كمال ...
الرصيف يكتظ بالناس ...
والسيارات تملأ الشوارع ...

يجب أن تركب « تكسياً » ...
فالمحطة بعيدة ولم يبق لها سوى نصف ساعة ...
ولكن !
إنها في باريز وسيارات التاكسي تسير باتجاه معين ولا تقف في كل مكان ...
يجب أن تقطع الشارع !
يجب أن تصبح على الرصيف الثاني ...
لماذا ؟
لماذا لا يقف « التاكسي » في أي مكان في هذا البلد ؟

السيارات تسرع ... تسرع !

يجب ...
يجب أن تقطع الشارع !
وإلا ... لن تلحق القطار !
يجب أن تلحق القطار قبل أن تضعف ... قبل أن تخونها شجاعتها ...
قبل أن تفهم أن آفاق حياتها تحددت إلى الأبد !
يجب ...
يجب أن تلحق القطار ...

وتلفتت شمالاً ويميناً ...
سيارات مسرعة آتية ...
وحسبت المسافة ...
وركضت !
ستقطع الشارع قبل أن تمر اقربُ سيارة ...
نعم ستقطعه فقد حسبت المسافة نظرياً ...
ولكنها نسيت ...
أن وحول الشتاء غادرة ...
وأن أحذية النساء الأنيقة لا تنفع في الركض وفي الوحول ...

نسيت أن كمال ليس إلى جانبها ليشدها من ذراعها ويهتف :

– رشا ... انتبهي !

ركضت !

وزعق مار ...

وسمع دوي صفارة ...

وصرير عجلات سيارة تحاول أن تكبح جماح سرعتها .

والتفت الناس ...

واقترب بعض الفضوليين من المرأة الممددة على الأرض ...

ولم الشرطيّ الحقيبة الصغيرة المندلقة على بعد متر من الجسد ...

ولكن ظرفاً سقط منها ...

فتناثرت منه أوراق عديدة ، جرفت الرياح بعضها ... وتمرغ بالوحل البعض الآخر ...

وما هي إلا لحظات ...

حتى كانت سيارة الإسعاف تقل السيدة إلى المستشفى !

– إن حالتها خطرة لكنها لم تمت ...

وفتحت رشا جفنيها بصعوبة على ثوب أبيض .
حاولت أن تتكلم ... فلم تستطع .
فهمس ذو الرداء الأبيض إلى المساعد الجالس إلى جانبه :
– إنها تحاول أن تتكلم ... إنها لم تفقد وعيها ...
واقترب من الشفتين المرتعشتين ... وتمتم برفق :
– لا تخافي ... نحن في طريقنا إلى المستشفى ...
حشرجتْ ...
ورجاء أخير يتلوى في عينيها الزيتيتين :
– أريد ... أريد أن أموت في بلدي ... أرجوك ... خذني ... إلى بلدي ...
وتأثر صاحب الرداء الأبيض .
من أين هي ؟
وساءلت نظراته مساعدَه ... فهزّ هذا الأخير كتفيه جاهلاً .
من أين هي ؟
واستطاعت رشا أن تفهم نظرته فغمغمت :
– دمشق ... خذوني إلى دمشق ... يجب أن أعود إليها... أن أموت فيها ... فأنا ... أحب ... ترابها ...
تأثر الطبيب وراح يطمئنها :

– انتِ بخير ... ليس عليك أي خطر ...
علت ثغرَها ابتسامةٌ شاحبة ... وتمتم الفم هـذه الكلمات المتقطعة :
– أنا ... أعلم ... أعلم أنني سأموت ! لا بأس ... أنا ... أنا لا أخاف الموت ... لكن ... لكن ... أريد أن أموت في بلدي ...
وسأل الطبيب بفضول :
– هل... هل تعرفين أحداً هنا ؟
عبر بريق في عينيها الهامدتين ...
وارتفت أهدابها التعبة ... :
– تعرفتُ... تعرفتُ إلى الدنيا هنا ...

وسكتتْ.
لا... لا ...يجب الاّ يعلم كمال !
لا... لن تصبغ ذاكرته بالسواد ...
يجب أن تظل حلماً حياً يعطّر ربيع عينيه ...

وتوسلت :
– لا ... لا ... لا أريد أن تخبروه !
ولم يفهم الطبيب .

واختنق صوته :

ـ تشجعي ... سنصل إلى المستشفى ... لا خطر عليك ...

غمغمت :

ـ أنا أرحب بالموت ...

فحاول أن تكون لهجته مازحة :

ـ لا تتحدثي عن الموت ... ستعيشين مائة سنة ...

استطاعت رشا لآخر مرة ... أن تبتسم بسخرية ..:

ودمدمت ...

والقدر يسبل أهدابها :

ـ ما فائدة السنين ...

كانت حياتي ... كل حياتي ... ليلة واحدة !

*

للمؤلفـــة

عشرون عاماً	شعر بالفرنسية	أيلول	١٩٥٧
أيام معه	رواية	تشرين الأول	١٩٥٩
	الطبعة الثانية	نيسان	١٩٦٠
	الطبعة الثالثة	تشرين الأول	١٩٦٠
	الطبعة الرابعة	أيار	١٩٦٧
	الطبعة الخامسة	كانون الثاني	١٩٨٠
	الطبعة السادسة	أيلول	١٩٩٧
	الطبعة السابعة	خريف	٢٠٠١
رعشة	شعر بالفرنسية	كانون الأول	١٩٦٠
ليلة واحدة	رواية	نيسان	١٩٦١
	الطبعة الثانية	شباط	١٩٧٠
	الطبعة الثالثة	أيلول	١٩٩٣
	الطبعة الرابعة	صيف	٢٠٠٢
أنا والمدى	تسع قصص	أيلول	١٩٦٢
	الطبعة الثانية	أيلول	١٩٩٣
كيان	قصة	أيلول	١٩٦٨
	الطبعة الثانية	ربيع	١٩٨٣
	الطبعة الثالثة	تشرين الأول	١٩٨٤
دمشق بيتي الكبير	قصة	صيف	١٩٦٩
المرحلة المرة	قصة	خريف	١٩٦٩
الكلمة الأنثى	تسع قصص	كانون الثاني	١٩٧١
	الطبعة الثانية	خريف	٢٠٠١

قصتان	قصتان	تشرين الأول	١٩٧٢
ومر صيف	رواية	تشرين الثاني	١٩٧٥
	الطبعة الثانية	صيف	١٩٨٥
	الطبعة الثالثة	أيار	٢٠٠٠
أغلى جوهرة بالعالم	مسرحية باللغة العامية	صيف	١٩٧٥
دعوة إلى القنيطرة	قصة	أيار	١٩٧٦
	ظهرت ثانية مع مجموعة « الأيام المضيئة »	خريف	١٩٨٤
أيام مع الأيام	رواية	نشرت مسلسلة	١٩٧٨/٩
	الطبعة الأولى	شباط	١٩٨٠
	الطبعة الثانية		١٩٩٣
الأيام المضيئة	قصص	تشرين الأول	١٩٨٤
معك على هامش رواياتي	غزل	تموز	١٩٨٧
أوراق فارس الخوري	الكتاب الأول	ربيع	١٩٨٩
أوراق فارس الخوري	الكتاب الثاني	خريف	١٩٩٧
العيد الذهبي للجلاء	محاضرة مقدمة العماد **مصطفى طلاس**	نيسان	١٩٩٧
امرأة	مجموعة قصص	ربيع	٢٠٠٠
طويلة قصصي القصيرة	صفحات من الذاكرة	ربيع	٢٠٠٠

في المطبعة

ستلمس أصابعي الشمس..... قصة رمزية

عبق المواعيد..... مقطوعات وجدانية

ذكريات المستقبل.....مجموعة المقالات

في وداع القرن العشرين.....مجموعة المقالات

أوراق فارس الخوري.....الكتاب الثالث

فارس الخوري بقلم معاصريه..... مختارات مما كتب عن فارس الخوري إبان تلك المرحلة

الإشراف الفني والطباعة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

دمشق ــ هاتف: ٦٦١٨٠١٣ ــ ٦٦١٨٩٦١

فــاكــس ٦٦١٨٨٢٠ ــ ص. ب: ١٦٠٣٥

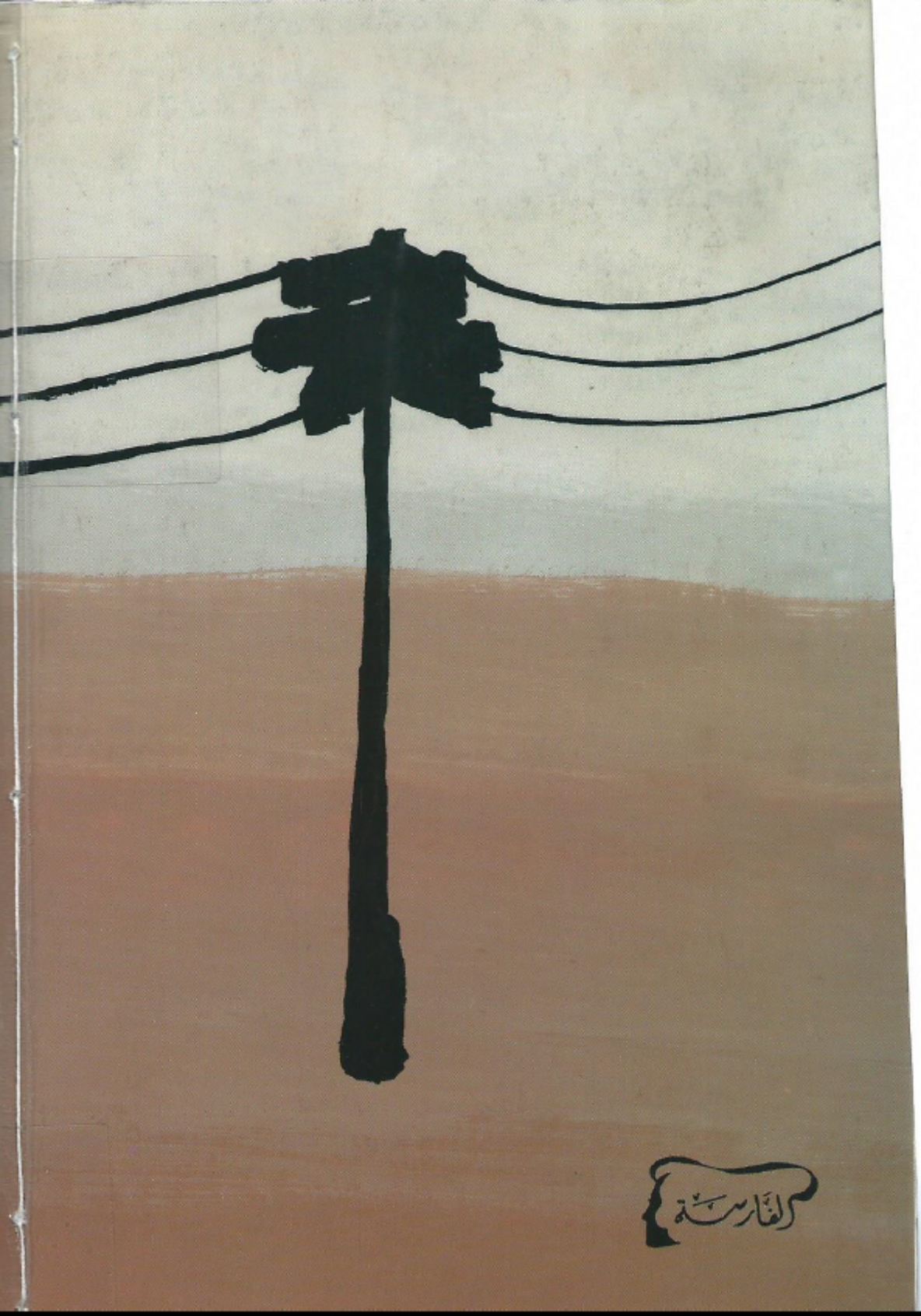
الفارسة